رحمة للعالمين

صلى الله عليه وسلم

محمد حسن عبد الله

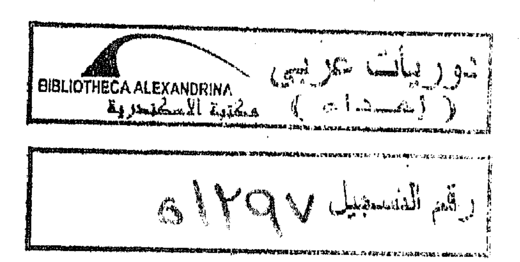
ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٣٩١٩٣٧٧
٤٢ ميدان الأوبرا ت ٣٩٠٠٨٦٨
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة

297.63

رحمة الله للعالمين

صلّى الله عليه وسلّم

محمد حسن عبد الله



الناشر
مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا ـ القاهرة ت: ٣٩٠٨٦٨



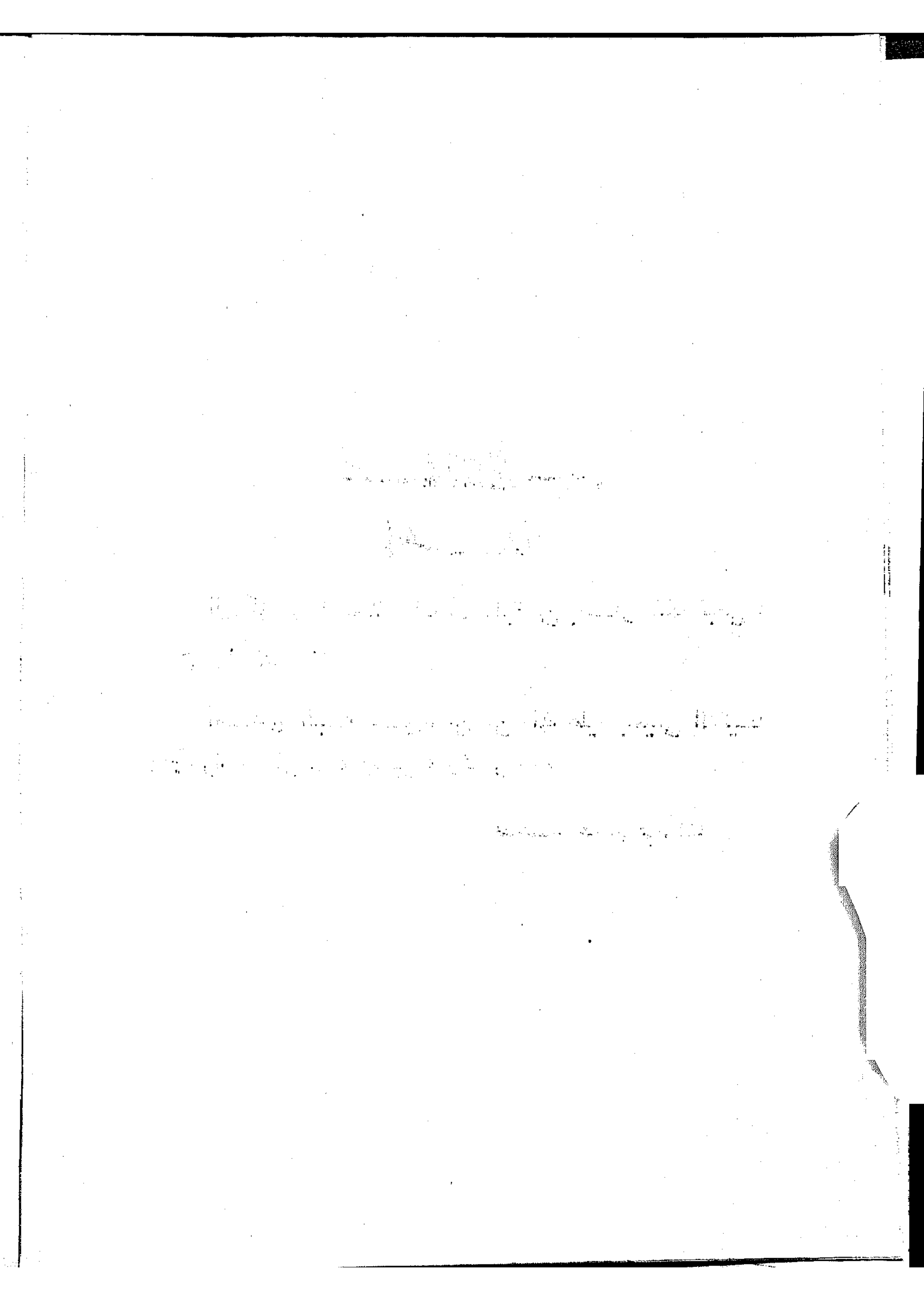
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

الى كل من استخلفه الله فى قطرة من بحار ملكه فبغى ، وظلم ، وفجر ...

أهدى اليه سيرة من منّ الله عليه بنعيمى الدنيا والآخرة .. فرحم ، وصبر ، وشكر ....

محمد حسن عبد الله



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للعالم الجليل الدكتور عبد الرشيد صقر
امام وخطيب مسجد صلاح الدين
وأستاذ الدعوة بكلية أصول الدين
بجامعة الأزهر الشريف

ان البشرية المؤرقة المضاجع السيالة المدامع ، المتوترة الأعصاب ، الممزقة النفوس فى أمس الحاجة الى مثل أعلى يهدىء روعها ويلم شعثها ويرشد خطاها ويقودها الى الغايات الكبرى ويفطمها عن سفاسف الأمور ودنايا المقاصد ويوظف مواهبها فى البناء وطاقاتها فى الاصلاح ويقودها الى المحاريب ويجندها لرب الوجود ويسوقها الى حراسة القيم ومسح القذى عن المبادىء .

ولن تجد البشرية فى القارات كلها انسانا تجسدت فيه المثل وتحركت به القيم وشمخ على يده البناء وشرفت به الكلمة واستعلت فيه الايجابية مثل سيد التاريخ نبى الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم رائد الدعوة العالمية والخطرة الانسانية والخطوة الربانية .

انى أشعر — بعد بحث — بافتقار الانسان فى هذا العصر المائج الى منهجه الالهى وسلوكه الراشد وخلقه العظيم ومنارته الوضيئة ومعالمه اللافحة ومسلكه المستقيم حتى يحيا من موات ويتآلف بعد شتات .

ان الحروب أهلكت الحرث والنسل ، والأمراض أنهكت القوى ، والسلبيات لفت العالم بستائرها السود ، والمضائك عششت فى البيوت والاختلاسات خربت الأوطان والجبابرة أذلت الشعوب والطواغيت نكست الرءوس ولا تستنقذ الانسانية من هذا الوباء الداهم الا بتطلعها الى المثل العليا فى شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرها وراءه واقتفائها أثره وامتثالها أمره .

ولقد ألف الأخ الأستاذ محمد حسن عبد الله كتابا قيما عن مسيرته صلى الله عليه وسلم بغية تنمية العقل وتغذية الوجدان وترشيد السلوك وترطيب الجفاف وانعاش الذابل لعل فيه اليقظة للأحاسيس الغافية والوقدة للنبضات الهامدة .

ان هذا الكتاب كوردة ناضرة بين أشواك علمانية لاذعة وكواحة وارفة الظلال وسط صحارى ماسونية قاحلة ، وهذه باكورة تترى بعدها الأزاهير النضاحة ان شاء الله .

أعج الى الله أن يتقبله منه وينفع به ويجعله فى موازينه ويبيض به وجهه ويرفع درجته . انه نعم المولى ونعم النصير .

الدكتور عبد الرشيد صقر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة الله للعالمين .

وبعد ...

تمضى السنون والأيام ، وتتعاقب الأمم والأجيال ، وتختلف على الناس حضارات وفلسفات ومذاهب ونظريات اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وتبقى الحقيقة الخالدة التى تعلن للدنيا آناء الليل وأطراف النهار أن خير دين أنزل على خير رسول أرسل لخير أمة أخرجت للناس انما هو دين الاسلام .

انه دين الرحمة ... رحم الله به الكون كله : انسه وجنه، زرعه وضرعه ، دوابه وهوامه وطيره كما بينت ذلك آياته الكريمة فى قوله تعالى :

﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ .

ولم يكن ليحمل هذه الرسالة الا من أعده الله لهـا خلقا ، وخلقا ، وحكمة ، ورقة وسموا ...

ولم يكن ليهدى الناس الى عبادة الرحمن الرحيم الا من حمل بين جنبيه قلبا ثريا بآيات الرحمة ، ومعانى الفضل والاحسان والبر والتقوى ، والحب والايمان .

ولقد نال كل من فى الوجود حظه من رحمتـــه صلى الله عليه وسلم ... وتمثل فيه قول الله تعالى :

﴿ وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ﴾ .

ولقد تناولت فى هـــذا الكتاب قطرة من غيث الرحمـــة التى تغمدت العالمين برسالته السامية ، ودعوته المخلصة وجهـــاده الصـــادق .

أما عن المقدمة التى تفضـــل بهـــا العالم الجليل الدكتور عبد الرشيد صقر امام وخطيب مسجد صلاح الدين ــ بالقاهرة ــ وأســتاذ الدعوة بكلية أصـــول الدين بجامعة الأزهر الشريف والذى نذر حياته ، وعلمه للدعوة الى الله ، ولفظ فى سبيلها متاع الدنيا الزائل ...

فالله نسأل أن يجازيه عن الاسلام والمسلمين خيرا فى الدنيا والآخرة .... وأن يتغمده برحمـــته ويحسن ثوابه يوم لقـــائه ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

ونسأله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه .... انه نعم المولى ونعم النصير .

محمـــد حسن عبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك ربى ما ارحمك :

سبحانك ربى ﴿ وسعت كل شىء رحمة وعلما ﴾ فأنعمت على التائبين بجميل عفوك ، ومننت على المنيبين بواسع رحمتك ، فانطلقت أرواحهم تهيم فى ساح الرضا ، تسبح بحمدك ، وتثنى عليك بما أنت أهله ، وتمجد جاهك وسلطانك .

سبحانك ربى ما من شىء الا يسبح بحمدك ، ويرجو رحمتك ، ويخشى عذابك . وكل من فى الوجود يدعوك لتنعم عليه . بحسن الجزاء يوم لقائك ، وليكون مع زمرة المتقين كما بينت ربنا فى كتابك الكريم وقلت وقولك الحق :

﴿ يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا . ونسوق المجرمين الى جهنم وردا . لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾[1] .

ربنا بظهر الغيب ما أكرمك !!!؟

لقد وسعتنا رحمتك ربنا قبل أن تمن علينا بالحياة . فأشهدتنا على أنفسنا فشهدنا .

---

(١) مريم : ٨٥ — ٨٧

شهدنا بأنك وحدك البارىء ، المصور ، وما سـواك وهم باطل . وأقررنا بأنك وحدك الباقى ، وما عـداك ظل زائل . فانطلقت أرواحنا تجتاز آفاق الزمان لا نشرك بك أحدا ، ونقر بك فردا صمدا كما قلت ربنا فى كتابك الكريم وقولك الحق :

﴿ واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنـا عن هذا غافلين . أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون . وكذلك نفصل الآيات ، ولعلهم يرجعون ﴾[٢] .

وفى الظلمات ربنـا ما ألطفك ؟

لقد أنشأتنا ربنا من الأرض ... ولطفت بنـا ونحن أجنة فى بطون أمهاتنـا .. فأطعمتنا ... وسـقيتنا .. ولا أحـد غيرك فى الظلمات يرعانـا ... فأنت وحـدك أعلم بنـا من أنفسـنا ... فما ألطفك ... وما أبدع خلقك . وأجـل شـأنك ... قال تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنـا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضـغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحمـا ثم أنشـأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[٣] .

---

(٢) الأعراف : ١٧٢ ــ ١٧٤
(٣) المؤمنون : ١٢ ــ ١٤

فى السماء وفى الأرض آيات رحمتك :

ان آيات رحمتك ربنا تتجلى فى أرضك وفى سمائك ••• فالأرض ذللتها •• وسخرتها لنا ••• نمشى فى مناكبها ••• ونأكل من رزقها •• والسماء زينتها بالنجوم • • والكواكب •• وأنزلت لنا منها ماء طهورا ••• فأحييت به الأرض بعد موتها ••• فأسقيتنا والمخلوقات منه شرابا طهورا ••• ولولا رحمتك •• لا ستحالت الحياة فى أرض جدباء لا نبات فيها ولا ماء ••• ولولا رحمتك لكانت قاعا صفصفا لا تنبت كلأ ولا عشبا •••

قال تعالى : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون • ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون • لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون • انا لمغرمون بل نحن محرومون • أفرأيتم الماء الذى تشربون • ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون • لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ﴾(٤) •

الليل والنهار من آيات رحمتك :

••• ومن رحمتك ربنا الليل والنهار ••• ولولا رحمتك لما نعمنا بنهار تشرق بضيائه قلوبنا ••• وتنشرح بمقدمه صدورنا ••• فنجد فيه ونسعى ••• ونجنى ثمار سعينا ••• ولما هدأت أجسامنا وعقولنا فى ليل تسكن فيه مخلوقاتك

---

(٤) الواقعة : ٦٣ ـ ٧٠

.... قال تعالى :

﴿ قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾(٥).

ربنـــا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطأنا :

.. خلقتنا ربنـــا لنعبدك ... ونأتمر بامرك ... وننتهى بنواهيك ... لكننا خطاءون بطبعنا ... تستهوينا أنفسنا . وتشغلنا من دونك دنيانا ... فننسى الغـــاية من وجودنا ...

فنقضى أيامنـــا ولياليـنـــا نلهث وراءها ... حتى اذا آذنت شمسنا بالمغيب ... وأذنت أيامنا للرحيل .. ندمنا على ما فعلنا ... وبكينا ... ورجونا أيامنا أن تعود بنـــا القهقرى ...

ولكن هيهات ... فمـــا فات ليس بآت ، والأيام تمضى الى حيث يشاء الله ، ونحن مما جنت أيدينا تتضاءل أمام آثامنا حتى تضيق علينا الأرض بما رحبت ... وتضيق علينا حتى أنفسنا واذا بحـــديثك القـــدسى يبعث فى قلوبنـــا الأمـــل . . . واذا بكلماتك النورانية تهـــدىء من روعنا ... وهى تتردد فى كياننا كما حدثنا به نبينا محمـــد صلى الله عليـــه وســـلم وقال :

---

(٥) القصص : ٧١ ــ ٧٣

« يقول الله تعالى ... يا عبدى لم تقنط ؟ ... أليس أنا الذى أظهرتك ... ولأمانى طوقتك ... مالك تتجاهل على كأنك ما عرفتنى ... وتتنحى كأنك ما وافقتنى ...

عبدى : ان استقلتنا أقلناك ... وان تبت الينا قبلناك ... وان عزمت على قصدنا أدنيناك ... وان اضطرب دليلك آريناك ... وان عاديت نفسك فى حب ودنا واليناك ... وان بكيت لضر دوائك داويناك ... وان بكيت لضرك شفيناك وان بكيت خشية أحضرناك ... وان بكيت خوفا أمناك ... وان بكيت أسفا على ما فاتك من حقوقنا عوضناك »(٦) .

وساعتها تنجاب عن نفوسنا الظلمات ... وتتغشانا بفضلك الرحمات ... ويتردد فى آذاننا الحديث النبوى الشريف الذى نزداد به أمنا وأمانا .. والذى قال فيه نبينا صلى الله عليه وسلم « ان لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون ... وبها يتراحمون ... وبها تعطف الوحوش على ولدها ... وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة »(٧) .

رحمة الله للعالمين :

... ان رحمتك ربنا لا تحيط بمداها العقول ... ولا تحدها

---

(٦) حديث قدسى رواه ابن مسعود رضى الله عنه .
(٧) متفق عليه .

الحدود •• فقد وسعت أرضك وسماءك • وبرك وبحرك ••
وانسك وجنك ••• وزرعك وضرعك ••• وحسبنا رحمة ورأفة
وشفقة وكرما وجودا أنك مننت علينا بنبى الرحمة ••• رحمت
بـه الوجود ••• ورحمت به العالمين ••• وأرسلته الينـا هاديا
ومبشرا ونذيرا ••• فنعمت به الانسانية ••• لمـا اتبعت النور
الذى أنزل معه ••• ولمـا آمنت به وصدقته واتبعت سنته •••
واهتدت بهديه •••

وحسبنا ما جاء فى كتابك الكريم مبينا مقام نبيك العظيم
الرحمة المهداة •• والنعمة المسداة •• : « وما أرسلناك الا رحمة
للعالمين »[8] •

رحمـة الله للعـالمين بظهر الغيب :

لقد رحمت به من اصطفيته من خلقك وهو بظهر الغيب
••• واصطفيت له كل فرقة وكل قبيلة وكل بيت انتسب اليه •••

انه صلى الله عليه وسلم ينتسب الى أبى الأنبياء ابراهيم
••• وسيرته فى الدعوة الى الله مشرقة بنوره •• فقد افتدى
بنفسه أسمى القول وأحسنه ••• ورضى بأن يحرق جسـده
••• لكن النـار امتنعت عن حرقه ••• وكانت بأمر ربها بردا
وسلاما على ابراهيم •••

---

(٨) الأنبيـاء : ١٠٧

قال تعالى : ﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم • أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون • قالوا حرقوه وانصروا ءالهتكم ان كنتم فاعلين • قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ﴾[٩] •

واصطفيت له ولده اسماعيل عليه السلام ••• وابتليته برؤيا سيدنا ابراهيم عليه السلام ••• فامتثل الأمرك ••• ورضى أن يذبحه أبوه •• فمننت عليهما بذبح عظيم ••

قال تعالى : ﴿ فبشرناه بغلام حليم • فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ••• قال يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين • فلما أسلما وتله للجبين • وناديناه أن يا ابراهيم • قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ﴾[١٠] •

واصطفيت له بنى هاشم بيتا ••• وعبد الله أبا ليحمل هذا النور الى العالمين ••

وقد رأت هذا النور فاطمة بنت مر •• وكانت من أجمل النساء وأعفهن ، ودعته أن ينكحها •• لكنه أبى •• وتزوج آمنة بنت

---

(٩) الأنبياء : ٦٦ ـ ٦٩

(١٠) الصافات : ١٠١ ـ ١٠٥

وهب ... فانتقلت اليها الرحمة ... ورأت حين حملت منه آياتها ... وبشرت الوجود بما رأته وقالت :

« رأيت حين حملت به أن خرج منى نور أضاء قصور بصرى من أرض الشام ... ثم حملت به ... فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ... ودفع حين ولدته ... وانه لواضع يديه بالأرض ، رافعا رأسه الى السماء » .

رحمة الله للعالمين وحليمة السعدية :

وقد قالت حليمة السعدية رضى الله عنها من رحمته صلى الله عليه وسلم ما أبدل حالها الى خير حال ... وسجلت ما أصابها وقومها وأتانها وشارفها من فاقة ... قبل أن يمن الله عليها برحمة الله للعالمين وقالت :

« خرجت فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئا ... على أتان قمراء .. ومعنا شارف لنا والله ما تبض بقطرة ... وما تنام ليلنا أجمع من صبينا الذى معنا ... من بكائه من الجوع ... ما فى ثديى ما يغنيه ... وما فى شارفنا ما يغذيه ... ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج ... فخرجت على أتانى تلك حتى أزمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا » .

قدمت حليمة رضى الله عنها مكة المكرمة مع صواحبها يلتمسن

الرضعاء من ذوى اليسار والغنى .. فأخذت كل منهن رضيعا ، الا حليمة رضى الله عنها ... وتركن محمدا لأنه يتيم ...

قالت حليمة تصف مشاعرها : « فما منا من امرأة الا وقد عرض عليها محمد (رسول الله ﷺ) ... فتأباه اذا قيل لها انه يتيم ... ذلك أننا كنا نرجو المعروف من أبى الصبى ... فكنا نقول : يتيم ؟!! ... وما عسى أن يصنع أمه وجده ؟ فكنا نكرهه لذلك ... فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا ، غيرى .. فلما أجمعنا على الانطلاق قلت لصاحبى : والله انى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا ... والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه ...

قال : لا عليك أن تفعلى عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ... فذهبت اليه فأخذته ... وما حملنى على أخذه الا أنى لم أجد غيره » .

وقد أحسنت حليمة رضى الله عنها صنعا لما أخذت بنصيحة صاحبها ... فقد حملت فى حجرها خيرا وبركة ، أبدلها الله بعسرها يسرا ... وبضيق العيش سعة وفرجا ... وبكل هم ألم بها مخرجا ... ولقد عبرت عن الرحمة التى تغمدتها ومن حولها وقالت : « فلما أخذته رجعت به الى رحلى .. فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ... فشرب حتى

روى ... وشرب معه أخوه حتى روى ... ثم ناما ... وما كنا ننام معه قبل ذلك ...

وقام زوجى الى شارفنا تلك .. فاذا انها لحافل ، فحلب منها ما شرب ... وشربنا معه حتى انتهينا ريا وشبعا ... فبتنا بخير ليلة ... » .

ولما رأى صاحبها ما أصاب الأسرة من نعيم ... وما أفاء عليها من بركة .. قال لصاحبته : « تعلمى والله يا حليمة .. لقد أخذت نسمة مباركة » .

رحمة الله للعالمين والركب الميمون :

ولما عادت حليمة رضى الله عنها الى الركب رأت من أمر أتانها عجبا ... ورأت صواحبها منها ما جعلهن يتعجبن ... ويسألن حليمة رضى الله عنها وهى تسبقهن ويقلن : « يا ابنة أبى ذؤيب ويحك أربعى علينا .. أليست هذه أتانك التى خرجت عليها ... فتقول لهن : والله انها لهى .. فيقلن : « والله ان لها لشأنا » .

رحمة الله للعالمين فى ديار بنى سعد :

وفى ديار بنى سعد تنزلت الرحمات لما قدم اليها محمد (نبى الرحمة) ... ونزل الغيث واهتزت الأرض وربت وأنبتت الكلأ والعشب ... وكانت من قبل جدباء لا ترى العين للحياة فيها

أثرا ... ولا ترى لبنا فى ضرع ... ألا انه لمـا هلت البركات بمقدم خير المخلوقات من الله على الديار ، فاذا بها وقد تبدلت الى خير حال كما وصفتها حليمة رضى الله عنها وقالت : (ثم قدمنا منازلنـا من بنى سـعد ... وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها ... فكانت غنمى تروح حين قدمنا شباعا لبنـا فنحلب ونشرب ... وما يحلب انسان قطرة لبن ... ولا يجدها فى ضرع ... حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويحكم : اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ... فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ... وتروح غنمى شباعا لبنا .. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة فى الخير حتى مضت سنتاه وفصلته) .



قال تعالى :

﴿ واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله اعلم حيث يجعل رسالته ، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ .

(الأنعام : ١٢٤)

لله الفضـــل والمنـــة

رحمـــة الله للعـــالمين وطهارة النفس :

... لقـــد من الله على خلقـــه بخير خلقـــه ... ونزع من صـــدره كل نقيصة تشينه ، وهو لم يزل على أول عتبـــة من عتبات الحياة ... وأعده لرسالته نقى السريرة طاهر القلب حتى اذا دعـــا الناس الى مكرمة كان أكرمهم خلقـــا ... وان دعاهم لعمل صالح كان أكثرهم صـــلاحا وحتى ترى النـــاس فيـــه صلى الله عليه وسلم مبادىء الاسلام السامية ... تراه رطب اللسان بذكر الله ، وبالطيب من القول ... وتراه رحيم القلب يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ... محسنا كأنما يرى ربه أمامه .. ملتزما أوامره ... مجتنبا نواهيه ...

... والله كما قال فى كتابه الكريم ﴿ أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ... فقد طهره حتى لا تحجبه عنـــه وساوس النفس وهمزات الشيطان ، كما بين ذلك فى حديثه الشريف وقال : « بينما أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنـــا اذ أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوء ثلجا ... ثم أخذانى فشـــقا بطنى ... واستخرجا قلبى فشقاه ... فاستخرجا منه علقـــة سوداء فطرحاها ... ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه :

« زنه بعشرة من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال : زنه بألف من أمته ، فوزنني بهم فوزنتهم ... فقال : دعه ... فوالله لو وزنته بأمته لوزنها ... » .

حقا ... انه صلى الله عليه وسلم يزن أمته لأن أمته لم تذكر بين الأمم الا به ..... ولأن أمته لم تسد غيرها من الأمم الا بالكتاب الذى أوحى اليه .

... وقبل هذا وبعده ، فان أمته لم تسجد لخالقها ... مسبحة بحمده الا لما اهتدت بهديه صلى الله عليه وسلم وآمنت برسالته ...

رحمة الله للعالمين قبل بعثه :

... ... كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معاملاته ... وكمال سلوكه ... وحسن أخلاقه فى صباه ... وفى شبابه ... وقبل بعثه وبعد بعثه ، نسقا واحدا لم يتغير .. فقد لازمته أخلاقه السامية ... وسموه النفسى ... وسجاياه الحميدة فى مراحل حياته حتى لحق بالرفيق الأعلى ..

ذلك أن الله اصطفاه .. وأوحى اليه بالنور الذى هدى بـه من يشـاء من عباده ...

قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما

كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم • صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا الى الله تصير الأمور ﴾[1] •

سداد رأيه ونفاذ بصيرته :

••• ولعلنا لو عشنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثه لرأينا نفاذ بصيرته وسداد رأيه رأى العين ••• ولرأينا الثقة التى من الله عليه بها ظاهرة للعيان •••

لقد سمته العرب « الأمين » وتحاكمت اليه لما اختلفت على الحجر الأسود ، وحاولت كل قبيلة أن تحوز الشرف وتحمله من دون القبائل وتضعه فى الركن •••

•• وكادت أن تتقاتل لولا أن أشار اليهم أسنهم بأن يحكموا أول من يدخل المسجد الحرام •

وكان أول الداخلين محمد • فقالوا : هذا الأمين محمد قد رضينا ، فأخبروه الخبر ، فقال صلى الله عليه وسلم : هلم الى ثوبا ، فأتى به ، فأخذ الحجر الأسود ووضعه فى الثوب بيده وقال : لتأخذ كل قبيلة من ناحية الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ،

---

(١) الشورى : ٥٢ ، ٥٣

ففعلوا حتى اذا بلغوا به موضعه ، وضعه بيده الشريفة ، ثم بنى عليه ...

حقا .. لقد كان صلى الله عليه وسلم نافذ البصيرة ، سديد الرأى قبل بعثه ، وكانت العرب تعرف قدرة أمينا صادقا ، عادلا ، فكان ما حدث يوم أعادت قريش بناء الكعبة ...

ولعلنا نرى فى هذا الحدث معنى كريما حمله الغيب بين جوانحه حتى اذا حانت الساعة وبعثه الله رحمة للعالمين ألف به القلوب وهدى به النفوس .

لقد اصطفاه ربه وأعده لرسالته ، فكان نسيجا وحده فى بيئة متقاتلة متنافرة لم تجاوز من قبل مجتمعا راقيا لتنال منه حظا من علم أو معرفة ، لكنه صلى الله عليه وسلم نشأ وعين العناية تكلؤه وتحرسه وتهديه ، فكان قبل بعثه ـ كما وصفته خديجة أم المؤمنين وهى تهدىء من روعه يوم نزل عليه الوحى ـ وقالت : « كلا والله لا يخزيك الله أبدا ... انك لتصل الرحم .. وتصدق الحديث ... وتؤدى الأمانة ... وتحمل الكل ... وتقرى الضيف ... وتعين على نوائب الدهر .

❊ ❊ ❊

قال تعـــالى :

﴿ لقـــد جـاءكم رســـول من أنفســكم عزيز عليه مـــا عنتم حريص عليـكم بالمؤمنين رءوف رحـيم . فـان تولـوا فقـل حســبى الله لا الــه الا هــو عليــه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ .

(التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩)

خلقه ﷺ رحمة للعالمين

رحمة الله للعالمين ومرآه العام :

كان صلى الله عليه وسلم فى كمال خلقه رحمة للعالمين .

وكان مرآه العام أمنا وأمانا للناظرين ، ومودة وحنانا ، وطمأنينة للقلب وسلاما للمؤمنين ، وألفة للروح ووئاما لمن أنعم الله عليه من المهتدين .

وصفت كتب السيرة محاسنه الظاهرة وقالت : بأنه كان صلى الله عليه وسلم عظيم الهامه ، ربعة مقصدا ، معتدل الخلق ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير المتردد . بادنا ، ليس بالجسيم ، رحب الصدر ، بعيد ما بين المنكبين .

وبأنه كان مشرق الوجه ، أبيض ، مشربا بحمرة ، أزهر اللون ... ليس بالأبيض الأمهق[1] ... ولا بالآدم[2] ... »

ووصفته بأنه كان أدعج[3] العينين ... أشكل[4] ... أهدب[5] الأشفار ، أكحل من غير كحل ...

---

(١) الشديد البياض . (٢) الأسمر .
(٣) شديد سواد الحدقة .
(٤) شديد بياض العين مع سعة فى شق العين .
(٥) كثافة وطول شعر الأجفان .

وقالوا ان عنقه كان في صفاء الفضة ، وان أسنانه كانت مثل حبات اللؤلؤ ، وان ساقيه كانتا مثل جمار النخل ..

ووصفوا قدميه بالاستواء ، اذا وضعهما نبا عنهما الماء ...

ولأن صورته الشريفة استأثرت بمشاعرهم ، فقد آثروه على أنفسهم ... ووصفوه ببصائرهم قبل أبصارهم ، ورأوا في محاسنه الظاهرة محاسنه الباطنة ...

وصفته عاتكة بنت خالد الخزامية لما مر عليها ليلة هجرته ومعه الصديق أبو بكر رضى الله عنه ، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق ، ودليلهم عبد الله بن أريط ....
وصفته لزوجها وقالت :

« ... رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ... حسن الخلق .. لم تعبه ثجلة[٦] ... ولم تزر به صعلة[٧] ... قسيما وسيما .. في عينيه دعج[٨] ... وفي أشفاره وطف[٩] ... وفي صوته صحل[١٠] ... أحور[١١] ... أزج(١٢) ... أقرن(١٣)

---

(٦) عظم البطن . (٧) صغر الرأس .
(٨) شدة سواد حدقة العين .
(٩) كثرة شعر الحاجبين .
(١٠) بحة في الصوت . (١١) شدة بياض العين .
(١٢) دقيق طرف الحاجبين .
(١٣) بين الحاجبين شعر خفيف .

اذا صمت فعليه الوقار ... واذا تكلم سما وعلاه البهاء ... حلو المنطق ... كلامه فصل ... لا نزر[١٤] ولا هذر[١٥] ... كأن منطقة خرزات نظم يتحدرن .. أبهى الناس وأجملهم من من بعيد وأحسنهم من قريب ... لا تشنؤه عين من طول ... ولا تقتحمه عين من قصر ... غصن بين غصنين ... فهو أنضر الثلاثة منظرا ... وأحسنهم قدا ... له رفقاء يحفون به ... اذا قال استمعوا لقوله ... وان أمر تبادروا لأمره » ...

... ووصفته ربيع بنت معوذ رضى الله عنها وقالت : « لو رأيته لرأيت الشمس طالعة » اهـ .

... ولقد صدقت الصحابية فى وصفها ... فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كالشمس لما أشرقت بهديه ظلمات النفوس ... واهتدت بنور رسالته القلوب ... ورأت بما أوحى اليه الحق فاتبعته ... والباطل فاجتنبته ....

... لقد أحبه الصحابه رضوان الله عليهم .. وتيمنوا بآثاره فى الحرب وفى السلم ... فى الحياة وفى الموت .

... وتعلقوا بآثاره حتى انهم اقتسموا شعره يوم حلق رأسه فى العمرة ... فأخذ خالد بن الوليد رضى الله عنه شعرة فجعلها فى قلنسوته ، يتيمن بها فى غزواته . . كما وان أنس

---

(١٤) قليل .　　(١٥) كثير .

بن مالك رضى الله عنه أوصى بوضع شعرات تحت لسانه بعد موته تبركا بهـا •••

وفعل الامام أحمـد بن حنبـل رضى الله عنه مثـل ذلك وهو فى سجن المـأمون •• وأوصى بأن يجعل بعد موته شعرة فى كل عين ••• والثالثـة تحت لسـانه اقتداء بأنس بن مالك رضى الله عنه[١٦] •••

•••• هؤلاء الذين أحبوه ••• واتبعوه •• رأوا آيات الرحمة فى مرآه العـام •• فأوحت اليهم بمحاسـنه الباطنة ••• وكمالاته الخفية •••

أما من طبع الله على قلبه ••• واتبع هواه ••• فقد أظلمت بصيرته ••• فلم تر عيناه كماله وجلاله •• فكفر وجحد ••• وأنـكر نبـوته • • • صـدق هـذا فى الصـحابى عمرو ابن العاص رضى الله عنه ••• الذى رآه بعد اسلامه فى صورة غير التى رآه قبل اسلامه ••• فأعجزته مهابة النبى صلى الله عليه وسلم أن يديم النظر فيه •••

وفى هذا المعنى يقول عمرو بن العاص رضى الله عنه : « انه لم يكن شخص أبغض الى منه •• فلما أسلمت لم يكن شخص أحب الى منه •• ولا أجل فى عينى ••• ولو سئلت أن أصـفه لكم لمـا أطقت ، لأنى لم أكن أملأ عينى منه اجلالا » •

---

(١٦) « شيخ الأمة ــ أحمد بن حنبل » .
الأسـتاذ عبد العزيز سيد الأهل .

قال تعالى :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ... ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك ... فاعف عنهم ... واستغفر لهم ... وشاورهم فى الأمر ... فاذا عزمت فتوكل على الله ... ان الله يحب المتوكلين » .

(آل عمران : ١٥٩)

خلقه ﷺ رحمة للعالمين

اخلاقه رحمة للعالمين :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل العالمين خلقا ، وأفضلهم خلقا ، وأسماهم نفسا ، وأطهرهم قلبا .

ذلك الأن سلوكه صلى الله عليه وسلم ، ومعاملاته ، وأقواله ، وأفعاله ، وعباداته كانت ترجمة صادقة لآيات القرآن الكريم .

ولقد عبرت عن أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وقالت : « كان خلقه القرآن » ، فقد روى ذلك سعد بن هشام عن عائشة رضى الله عنها وقال :

« أتيت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فقلت لها » أخبرينى بخلق النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : « كان خلقه القرآن » . أما تقرأ : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾[1] .

ولو تدبرنا آيات الله البينات لرأينا أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحيد عنها قيد أنملة ، فقد كانت أوامر

---

(١) رواه ابن جرير .

ربـه وفواهيه تنبض حياة في سره وجهره ، ويقظته ومنامه ، وحربه وسلمه

وحسبنا دليلا على ذلك بعض الآيات الكريمة تندبرها ونرى أخلاقه صلى الله عليه وسلم على ضوئها لنرى ما قالته أم المؤمنين رضى الله عنها حقيقة ماثلة أمام أعيننا ، نكاد نلمسها بأيدينا ، ونراها ببصائرنا وأبصارنا .

لقد وصفته آيات ربه بالرحمة ، ووصفت معاملته لقومه باللين في قوله تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمـر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين ﴾[٢] .

ولقد تجلت رحمته صلى الله عليه وسلم وهو يهدى قومه الى الله ربا ، والى الاسلام دينا ، فدعاهم الى الرفق بأنفسهم فى عبادة ربهم كما يبين ذلك الحديث الشريف الذى رواه أنس رضى الله عنه قال : « دخل النبى صلى الله عليه وسلم فاذا حبل ممدود بين الساريتين » فقال : « ما هذا الحبل ؟ » .

قالوا : هذا حبل لزينب ، اذا فترت تعلقت به ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : حلوه ، ليصل أحدكم نشاطه ، فاذا فتر فليرقدن[٣] .

---

(٢) آل عمران : ١٥٩

(٣) متفق عليه .

كما وأنه صلى الله عليه وسلم كان يخشى على الناس أن تستن به فيما يأتيه من أعمال قد يراها ثقيلة على الناس . . . فيدع العمل بهـا رحمة بهم ...

قالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمـل بـه الناس فيفرض عليهم »[٤] .

... وكان صلى الله عليه وسلم رحيما بخـدمه ، هـذه الرحمة التى يعرضها أنس بن مالك رضى الله عنه ويقـول : ما مسست ديباجا ولا حريرا ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ولقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين ... فما قال لى قط : أف ... ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ؟ ولا لشى لم أفعله ألا فعلت كذا[٥] .

ولم يكن مولى أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها بأقـل حظا فى رحمته من خدمه .. فقد أعتقه وعامله أكرم معاملة تجلت لـما جاءه أهله من اليمن ليرافقهم الى قومه . وخير رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى أمره ان شاء رافق أهله وان شـاء أقام معه ... فآثر الحيـاة معه لمـا لمسـه فى معاملته من رحمة وشفقة ورأفة ..

---

(٤) متفق عليه .

(٥) متفق عليه .

حقا لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فظا ولا غليظ القلب ••• ولم يكن فاحشا ••• ولا بذيئا ••• ولا صخابا فى الأسواق ••• بل بعثه الله رحمة للعالمين •••

ولقد لمسـنا بعض آثار هذه الرحمة الربانية مع زوجه ، وولده ، وخدمه ، ومولاه ••• ولو حاولنـا أن نستسقى من فيض الرحمة التى من الله بهـا على الانسانية لمـا وسعتنا هذه الصفحات •••••

لذا سنحاول أن تتذوق من بحـار رحمته قطرات نطفىء بهـا لهيب شوقنا الى حيـاة السلف الصـالح التى أظلتهـا مبادىء الاسـلام السـامية ••• والتى سـادتها العـلاقات الانسانية •••••••

•••••• ونحن لو مضينا تتدبر فى آيات الله الكريمة التى هدته الى الطيب من القول ••• والصالح من العمل ، ووصفته بقلبه اللين الذى تألفت به القلوب •• لرأينا أن هـذه الآيات الكريمة تدعوه الى « العفو » عن الجاهل والسفيه والمسيء بقول أو فعـل •••

ذلك أن الله ـ وهو أعلم بعبـاده من أنفسهم ـ أكرمهم بنبيه الذى وسع بعفوه ذوى النفوس المريضة ••• وكان لهـذا العفو أثره فى شفائها وعودتها الى ركب الانسانية مشرقة بنور الله ، طيبة طاهرة •••

لقد كان «العفو» من صفاته صلى الله عليه وسلم ، وقد فجر بـه ينابيع البر والألفة بين قومه ، لأنه صلى الله عليه وسلم سما بهذه الفضيلة الى أسمى مكانة وأعلى منزلة ، حتى انه لم يعد لأحد مهما وصف به أن يسمو الى منزلته ، أو حتى يحوم حولها ، والا فأين منا هذا الذى يناصبه أقرباؤه وجيرانه وأفراد عائلته وقومه العداء فيسبونه ويأتمرون لقتله ويخرجونه من موطنه ويقاتلونه فى مهجره ، ويمثلون بصحابته أبشع تمثيل .. كل ذلك لكلمة حق قالها ... حتى اذا نصره ربه جاءته هذه العصبة خاشعة تنظر اليه من طرف خفى ، وهى تظن به الظنون حتى يحاورها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟! قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وقد يتجاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم العفو الى مرتبة أسمى فيحسن الى من يؤذيه بكلمة جارحة أو سلوك معيب، ويوقظ بعفوه واحسانه معانى الخير فى نفسه ، ويعظه بسلوكه الكريم ويدعوه الى ربه ليرق قلبه ويلين ، ويألف القول الطيب ، والمعاملة الحسنة مع نبيه صلى الله عليه وسلم ومع جماعة المسلمين .

عن أنس رضى الله عنه قال : « كنت أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية ،

فأدركه أعرابى فجبذه بردائه جبذة شديدة ، فنظرت فى صفحة عاتق النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أثرت فيها حاشية الرداء من شدة جبذته ثم قال : « يا محمد مُرْ لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت اليه ، فضحك ، ثم أمر له بعطاء »[6] .

ولا غرابة فى ذلك فالنبى صلى الله عليه وسلم كان يسمو بعفوه فيحسن الى من أساء اليه ثم يستغفر له لأنه ما جاء يدعو قومه والعالمين لينال مغنما فى الدنيا ، شرفا كان هذا المغنم أو جاها ، مالا كان أو سلطانا ، بل كانت دعوته خالصة يبغى بها وجه ربه ، فكان مقامه فى العفو عطاء واحسانا ، واستغفارا ودعاء

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

« ... كأنى انظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى نبيا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : « ... اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون »[7] .

رحمة الله للعالمين والشورى :

لقد عشنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يلتزم بآيات

---

(٦) متفق عليه .

(٧) متفق عليه .

الله البينات في خلقه الحسن ••• ولنمض مع هذا الالتزام النبوى بأوامر ربه •••• وهو يستشير الصحابة رضوان الله عليهم فى شئون حياتهم •••

لقد استشارهم فى السلم وفى الحرب ••• فانتظمت حياتهم •••• وافتدوا دينهم بأرواحهم وأموالهم ••• فتحقق لهم النصر فى دنياهم ••• والفوز بالنعيم المقيم فى أخراهم •••

لقد استشار الصحابة رضوان الله عليهم فى قتال المشركين يوم « بـدر » ••• فقـام أبو بكر رضى الله عنه ••• ومن بعـده عمر رضى الله عنه فأحسنا القول ••• وقام من الانصار سـعد بن معاذ رضى الله عنه فقال : فوالذى بعثك بالحـق لو استعرضت بنـا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منـا رجل واحد ••• وما نكره أن تلقى عدونا بنـا غـدا ••• انـا لصبر فى الحرب ••• صدق عنـد اللقـاء •••• لعـل الله يريك منـا ما تقر به عينك ••• فسر على بركة الله •

فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا جاء أدنى ماء من بـدر نزل به ، فقال الحباب بن المنذر بن الجموح رضى الله عنـه :

•• يا رسـول الله ••• أرأيت هذا المنزل ؟! ••• أمنزل أنزلكه الله ليس لنـا أن نتقدم ولا نتأخر عنه ؟! أم هو الرأى

والحرب والمكيدة ؟ ... قال : بل هو الرأى ... والحرب ... والمكيدة ... قال : يا رسول الله فان هـذا ليس بمنزل ... فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ... ثم نغور ما وراءه من القلب ... ثم نبنى عليه حوضـا فنملؤه ماء ... ثم نقاتل القوم ... فنشرب ولا يشربون ... فقال صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى .

... فنهض ومن معه من الناس ... فسار حتى اذا أتى أدنى ماء من القوم ، نزل عليه ، ثم أمر بالقلب فغورت ...

الشـــورى فى غزوة ((أحـد)) :

... ولقد استشار الصحابة رضوان الله عليهم فى غزوة « أحد » ، وكان رأيه البقـاء فى المدينة المنورة ويدع المشركين حيث نزلوا ... فان أقاموا حيث هم أقاموا بشر منزل ... وان دخلوا المدينة قاتلوهم ...

... كان هذا رأيه ... لكن قوما فاتتهم « بدر » أرادوا الخروج ... فنزل على رأيهم وخرج للقاء أعدائه من المشركين ..

... وهنا نلمس رحمته صلى الله عليه وسلم بأتباعه ... وهو يلقن المسلمين درســا عمليا فى الولاية ... ويعلن للانسانية

أن أحدا كائنا من كان ومهما كانت قدراته ومواهبه لا يملك أمر المسلمين وحــده .. يفكر ويقرر ويدعوهم الى ما رآه

... لا أحد يملك هذا الحق ... لأن الانسان خطاء بطبعه قــد تغريه الســلطة ... ويستعبده المــال ... وتستولى على عواطفه ومشاعره الشهوات ... فيتبع هواه ... ويسخر رعيته لتحقيق مآربه ...

هنــا نرى رحمته وقــد وسعت الانسانية كلهــا لتنتظم الحياة وتتحقق آدمية الفرد وخير الجماعة ..

« فاذا عزمت فتوكل على الله » :

ثم تأمره الآيات الكريمة أن يعد عدته ... ويعقد عزمه ... ويدع الأمر لله يفعل فيه ما يشاء .

... وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمره به ربــه « يوم أحد » .. لقد شاور أصحابه ... ونزل على رأى الجماعة . واستعد للقــاء المشركين ... فجــاءه الذين خالفوه يقولون :

« استكرهناك ... ولم يكن ذلك لنــا ... فان شــئت ... فاقعد صلى الله عليك » .

... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ... ما ينبغى لنبى اذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل ... » .

الدعوة الى الله :

... وفى دعوته صلى الله عليه وسلم الى الله التزم بآيات ربه ... واتبع المنهج الربانى فى الدعوة ... ولم يخرج صلى الله عليه وسلم عن هذا السبيل القويم الذى بينه القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ ... ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن .. ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله .. وهو أعلم بالمهتدين ﴾(٨) .

... ولقد تمثلت حكمته فى المقال المناسب لكل مقام ... والمثال الملائم لكل بيئة ... والقول المتسق مع كل فئة اجتماعية ...

... عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هلكت يا رسول الله ... قال : وما أهلكك ؟! . قال : وقعت على امرأتى فى رمضان . قال :

---

(٨) النحل : ١٢٥

تجد ما تعتقه . قال : لا . قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ . قال : لا . قال : فهل تجد ما تطعم ستين مسكينا ؟! قال : لا . ثم جلس . فأتى النبى صلى الله عليه وسلم بعذق فيه تمر . فقال : تصدق بهذا . قال : فهل على أفقر منا ؟ فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال : اذهب فأطعمه أهلك .

وفى هذا الحديث الشريف تتجلى حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يدعو الناس الى ربهم كما أمرته بذلك آيات الله البينات .

لقد عرض صلى الله عليه وسلم على الآثم سبلا عديدة ليكفر بما يطيقه منها خطيئته وفتح له أبواب الرحمة على مصراعيها ليدخلها من أى باب تؤهله له قدراته ، لكن الرجل معدم لا يملك شيئا .

ثم نرى الحكمة النبوية فى الدعوة وهو يدعو هذا الآثم الذى ضاقت به سبل التوبة جالسا أمامه ، لا يضيق بمجلسه صلى الله عليه وسلم ولا يتبرم ، ولا يقهره ، ولا يلومه : ولا يؤنبه على ما فعله : حتى اذا أتته الصدقة أعطاها له ليكفر بها عن ذنبه .

لكن الرجل يعلن أنه أشـد الناس حاجة هو وأهله الى هـذه الصدقة •

يعلن ذلك ، وكأنما جاء ليبين للناس حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعوته لربه ، فلا يغضب رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، بل يضحك كما يبين لنـا الحديث حتى بدت نواجذه ، ثم يأذن له بذلك ليعود الى أهله بعفو الله عن خطيئته وباحسان النبى صلى الله عليه وسلم وفضله •

الموعظة الحسـنة :

ان آيات الله البينات أمرت رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد رأينا ما يـدل على حكمته فى الحديث الشريف الذى تعرضنا له •

أما دعوته للنـاس بالموعظة الحسـنة فتتمثل فى أحاديثه الشريفة ، وأمثاله الموحية بالهدى والرشاد ، وصبره على سفاهة المجادلين ، وقوله اللين ، وجوامع كلمه التى بلغ بهـا رسـالة ربه جلية واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، ومقالاته التى ناسبت كل مقـام •

وحسبنا دليـلا على دعوته للناس بالموعظة الحسنة : أمثله التى ضربها فى أحاديثه الشريفة ، والتى كان لهـا أعمق الأثر

فى هداية أتباعه ، لقوة دلالتها ، ولوضوح مرماها ، ومناسبتها لمقـام سامعيها ، والتى ما زالت وستظل فى سمع المؤمن وقلبـه قوية ، مؤثرة ، ذات فعالية تحقق غايتها فى كل آونة وحين .

وكفى بأمثاله شاهدا على موعظته الحسنة والتى لاءمت كل زمان ومكان ، وكل بيئة علمية ، وكل مستوى حضارى ، والتى ما زالت ألفاظها ، وعباراتها ، وأساليبها مألوفة كأنهـا لغـة العصر الذى نعيشه ، لا حشو فى ألفاظها ، ولا غرابة فى نظمها ، وفى مدلولاتها .

ولنتدبر مثـلا ضربه يدعو فيه أتباعه لاختيار البيئة الصالحة التى تزدهر فيها مبادىء الاسـلام السامية ، وأخلاقه الفاضلة ، وأعماله الصالحة ، ويحذرهم فيه من البيئة الفاسدة المفسـدة التى تحطم معنويات المسلم الصالح ، وتدمر قيمه ، ومثله العليا ، والذى ضربه فى حديثه الشريف الذى قال فيه :

« انما مثل الجليس الصالح ، والجليس السوء ، كحامل المسك ، ونافخ الكير ، فحامل المسك اما أن يحذيك ، وامـا أن تبتاع منه ، واما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير اما أن يحرق ثيابك ، واما أن تجد منه ريحا منتنة »(٩) .

---

(٩) رواه مسلم .

ان هذا المثل الذى دعا فيه الصحابة رضوان الله عليهم الى اختيار البيئة الصالحة التى تحفظ عليهم دينهم وقيمهم ، ومثلهم العليا ليعبر عن أسلوب دعوته كما أمره ربه •

كما وأن أثره الطيب كان يسرى هينا لينا فى قلوب الصحابة رضوان الله عليهم وهو يعظهم وجلال النبوة يغشاهم ، ويعمر قلوبهم بنور الايمان ، فانه ــ وحتى الساعة والى أن يرث الله الأرض ومن عليها ــ سيظل يحمل عبر القرون كمال النبى صلى الله عليه وسلم فى خلقه وخلقه ، وصدقه ، وصفاء نفسه الى من يقرؤه أو يسمعه من الأجيال المتعاقبة •

ان الموعظة الحسنة التى انصهرت بها القلوب المتحجرة لتبدو فى أحاديثه الشريفة كلها ، وفى أمثاله التى ضربها ليبين بها حكما أو يصلح بها عملا فاسقا •

ولو حاولنا عرضها لما وسعتنا هذه الصفحات ، لذلك سنكتفى بحديث شريف آخر بين فيه حال العبد المسلم الذى لا تنهاه صلاته ، وصومه ، وزكاته ، عن ايذاء المسلمين ، وعاقبة السوء التى تنتظره يوم لقاء ربه وهو يعطى لذوى الحقوق حقوقهم •

لقد صوره الحديث الشريف أدق تصوير حتى وكأننا نلحظه ونراه وهو يعطى لهذا وذاك حقه فى عباراته ، ونكاد

(*) بسكون الياء فيهما ، راجع القاموس .

نشفق عليه وعلى أمثاله وهم فى هذا الكرب العظيم ، وتتمزق نياط القلوب لما يصوره لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصورته الكئيبة وقد انتهت عباداته ولم يزل العباد يطالبونه بحقوقهم حتى تطرح عليه خطاياهم ، ثم يطرح فى النار .

انها موعظة تذيب الصخر ، وتلين أقسى القلوب ، وتقشعر لمغزاها ومرماها جلود الجبابرة وهم يسمعون حديثه الشريف الذى قال فيه لأصحابه ذات يوم :

« أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة ، وزكاة ، وصيام ، ويأتى ، وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فاذا فنيت حسناته ــ قبل أن يقضى ما عليه ــ أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار »[١٠] .

ان الموعظة الحسنة التى أمرته بها آيات الله البينات لم تكن لتقتصر على أحاديثه الشريفة التى ضرب فيها أدق الأمثال ، والتى تناولت جوانب الحياة كلها فى الدنيا والآخرة ، بل لعلنا لو تدبرنا أفعاله ، وأخلاقه ، وعباداته ، وجهاده لرأيناها موعظة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

---

(١٠) رواه مسلم .

ذلك أن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ مولده حتى يوم لقاء ربه كانت كتابا يعظ فيه الانسانية لما فيه صلاحها فى دنياها وأخراها .

فهو فى صحته كان يعظ الناس بالحمد والشكر ، وبالصلاة والصيام وبالدعاء وفضائل الأعمال .

وهو فى مرضه كان يعظ الناس بالصبر والامتثال لقضاء الله . .

وهو فى جهاده كان يعظ الناس بشجاعته ، واخلاصه ، وصدق عزيمته ، وقوة يقينه .

وهو مع أسرته كان يعظ الناس برحمته ، وبره ، ومودته، واحسانه .

وفى ايجاز شديد نقول ان حياته كلها كانت موعظة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

المجادلة بالتى هى احسن :

نحن ما زلنا تتدبر آيات الله متمثلة فى أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم لنراها نابضة بالحياة وهو يدعو الناس الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة .

ولننتقل الى مجادلتهم بالتى هى أحسن وهو يدعوهم الى ربهم لنرى المجـادلة الحسـنة متكاملة مع الدعـوة بالحكمة والموعظة الحسنة •

ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو قلوبا غلفا ، وأعينا عميا ، وآذانا صما ، وكان يدعو قوما أبطلوا الحق وحاربوه ، وأحقوا الباطل وناصروه ، وأمثال هؤلاء هم أشـد الناس حاجة الى المجادلة بالتى هى أحسن •

ولولا أنه صلى الله عليه وسلم كان يمتثل أمر مولاه فى جداله معهم لمـا اتبعوه ، وآمنوا به ، ونصروه •

لقد كانت السادة والأشراف وأصحاب المصلحة يجادلونه جدالا يثير الحليم ، وكانوا يرون أن مبادىء الاسلام السـامية تقيـد معاملاتهم ، وتقف حجر عثرة أمام شهواتهم وأهوائهم ، فلا يدعون سبيلا يفترون فيه على الله بكاذب القول ، وظالم الافتراء الا سلكوه فرسول الله صلى الله عليه وسلم يدحض افتراءهم بالحجـة البالغـة ، والمنطق المفحم ، دون أن يؤذى مشاعرهم أو يجرح كبرياءهم •

ولنعش مع حديثه الشريف وهو يحاور شـابا رأى فى الاسـلام ومبادئه عقبة تقف دون شهواته ، فجاءه وقال يا نبى الله ، أتأذن لى فى الزنا ؟ فصاح الناس • فقال النبى صلى الله

عليه وسلم : قربوه ؟ أذن ، فدنا حتى جلس بين يديه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أتحبه لأمك ؟ قال : لا .. جعلني الله فداءك . قال : كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم . أتحبه لابنتك ؟ قال : لا جعلني الله فداءك . قال : كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم . ثم ذكر العمة ، والخالة ، وهو يقول : لا .. جعلني الله فداءك . فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره ، وقال :

« اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه ، وحصن فرجه » فلم يكن شيء أبغض اليه[11] منه .

ورأى الصحابة رضوان الله عليهم حكمته ، وموعظته الحسنة في مواقف كثيرة ، نذكر منها ما رواه الصحابي معاوية بن الحكم رضي الله عنه قال :

بينما أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ عطس رجل من القوم ، فقلت : «يرحمك الله» ، فرماني القوم بأبصارهم فقلت : ثكلتكم أمهاتكم ، ما شأنكم تنظرون الي ، فجعلوا يضربون أفخاذهم ، فلما رأيت أنهم يصمتوني سكت ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبأبي هو وأمي ، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه ، فوالله ما قهرني ، ولا ضربني ، ولا شتمني ، وانما قال :

---

(11) أي من الزنا ، والحديث رواه أحمد .

« ان هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، انما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن » .

﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ :

لقد تدبرنا آيات الله الكريمة التى تعرضت لرحمته صلى الله عليه وسلم ، ورأينا كيف تمثلت فى رحمته بأسرته وخدمه ، كما وأننا رأينا آيات الله الكريمة متمثلة فى عفوه عن المسيء من أصحابه وأعدائه ، وفى استغفاره لمن تجاوز حده فى قوله وفعله ، وفى مشاورته لأصحابه فى حربه وسلمه ، والامتثال لأمر الجماعة فيما يتصل بأمور دنياهم .

كما واننا تعرضنا لآيات الله التى بينت له سبيل الدعوة الى الله ، ورأينا المنهج الربانى متمثلا فى أسلوب دعوته لم يحد عنه قيد أنملة .

ولقد جمعت آية فى القرآن الكريم كل ما اتصف به صلى الله عليه وسلم من خلق فاضل فى قوله تعالى : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾[١٢] .

وحتى نرى أخلاقه القرآنية رأى العين : نتعرض الى قيمة

---

(١٢) القلم : ٤

خلقية أو أكثر حتى يتبين لنـــا التزامه الخلقى بهـــدى القرآن الكريم ، وليكن ما قتدبره هو حلمه صلى الله عليه وسلم .

كان الحلم من أخلاقه الكريمة التى تحلى بها . وكان فى حلمه القسة التى ترنو اليها النفوس لتنال من هذا العطاء الربانى ما ييسر لهـــا سبل التعامل مع ذوى الطبائع والأخلاق والعادات المتباينة ...

لقد فاق فى حلمه كل وصف ... وسما به وارتقى الى اسمى مراتبه ... والا فأين ذلك الحليم الذى يدنس له عدوه أقدس مقدساته ... فلا ينتقم منه ... ولا يغضب ولا يثور ..

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « ... بال أعرابى فى المسجد ... فقام الناس ليقعوا فيه ... فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ... دعوه ... وأريقوا على بوله سجلا من ماء (أو ذنوبا من مـــاء) فانمـــا بعثتم ميسرين ... ولم تبعثـــوا معسرين »[13] .

... وكان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم « الصدق » ... وقد تحلى بهذه الصفة الكريمة فى صباه .. وفى شـــبابه ... وفى كهولته ... تحلى به وبغيره من مكارم الأخلاق .

---

(١٣) رواه البخارى .

... وكان لهذه الفضيلة السامية أثرها القوى الذى أبطل افتراء المشركين ... ذلك أن صدقه قبل بعثه كان حجة مفحمة لصدقه فى دعوة قومه الى ربهم ... ولو كان كاذبا ــ وحاشا لله أن يكون ــ لكذب على الناس ولما التزم الصدق فى حياته كلها .

... لقد صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبل الصفا ، ونادى القبائل حتى اجتمعت ، ودعا قومه الى الاسلام وقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ... أكنتم مصدقى ؟! ... فأجابوه قائلين : ... نعم ... ما جربنا عليك كذبا قط ... فقال لهم : « ... فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ... » .

وكان صلى الله عليه وسلم يرى الصدق سمة من سمات المسلم..وعنصرا من عناصر شخصيته ، لا تفارقه فى أحواله كلها ...

وكان يلتمس العذر للمسلمين بحكم بشريتهم الخطاءة ... ونفوسهم الأمارة بالسوء ... وضعفهم البشرى ..

كان صلى الله عليه وسلم يلتمس العذر لنقائصهم الخلقية ... وآفاتهم النفسية .. الا أنه كان لا يعذر أحدا من المسلمين فى الخيانة والكذب كما بين ذلك فى حديثه الشريف

وقال : « يطبع المؤمن على الخلال كلها الا الخيانة • • • • والكذب »[١٤] •

••• كما وأنه كان يمقت من تخلق بهذه الصفة كما حدثتنا بذلك عائشة رضى الله عنها وقالت : « •• ما كان من خلق أبغض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ••• ما اطلع على أحد من ذاك شيئا فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة »[١٥] •

••• كان صلى الله عليه وسلم لا يعذر الناس فى صفة الكذب • ولا يقبل فيه تبريرا حتى ولو ادعى المسلم فى كذبه بالمزاح •• بل الأكثر من هذا أنه بين فى حديثه الشريف أن الكذب فى المزاح ينال من ايمان المؤمن وينتقص منه •

وفى هذا المعنى •• قال : « لا يؤمن العبد الايمان كله حتى يترك الكذب فى المزاح »[١٦] •

•• ولقد حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث آخر ، بين فيه منزله الصدق عند الله ••• وجزاء الصادق

---

(١٤) رواه أحمد .
(١٥) رواه أحمد والبزار واللفظ له .
(١٦) رواه أحمد .

فى دنياه ... وأخراه ... وثوابه عند ربه يوم يلقاه ، وقال « ان الصدق يهدى الى البر ... وان البر يهدى الى الجنة ... ان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ... وان الكذب يهدى الى الفجور .. وان الفجور يهدى الى النار ... وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا »[١٧] .

ومن هاتين الصفتين الكريمتين التى تحلى بهما « الحلم » و « الصدق » ... وغيرهما من مكارم أخلاقه : نرى كيف تمثلت فى أخلاقه آيات ربه فى قوله تعالى : ﴿ وانك لعلى خلق عظيم ﴾ ...

... وحقا .. ما قالته عائشة رضى الله عنها ، لما وصفت أخلاقه صلى الله عليه وسلم وقالت : « كان خلقه القرآن » ...

والقرآن الكريم كان ... شفاء ورحمة ونورا ، هدى الله به القلوب ... فأشرقت بنور ربها ... ومحى الله به ظلمات النفوس ... فاهتدت بهديه ...

قال تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين الا خسارا ﴾[١٨] .

.... والمصطفى صلى الله عليه وسلم ــ وقد تخلق بأخلاق القرآن ــ كان بمكارم أخلاقه ... وفضائل أعماله رحمة للعالمين ...

---

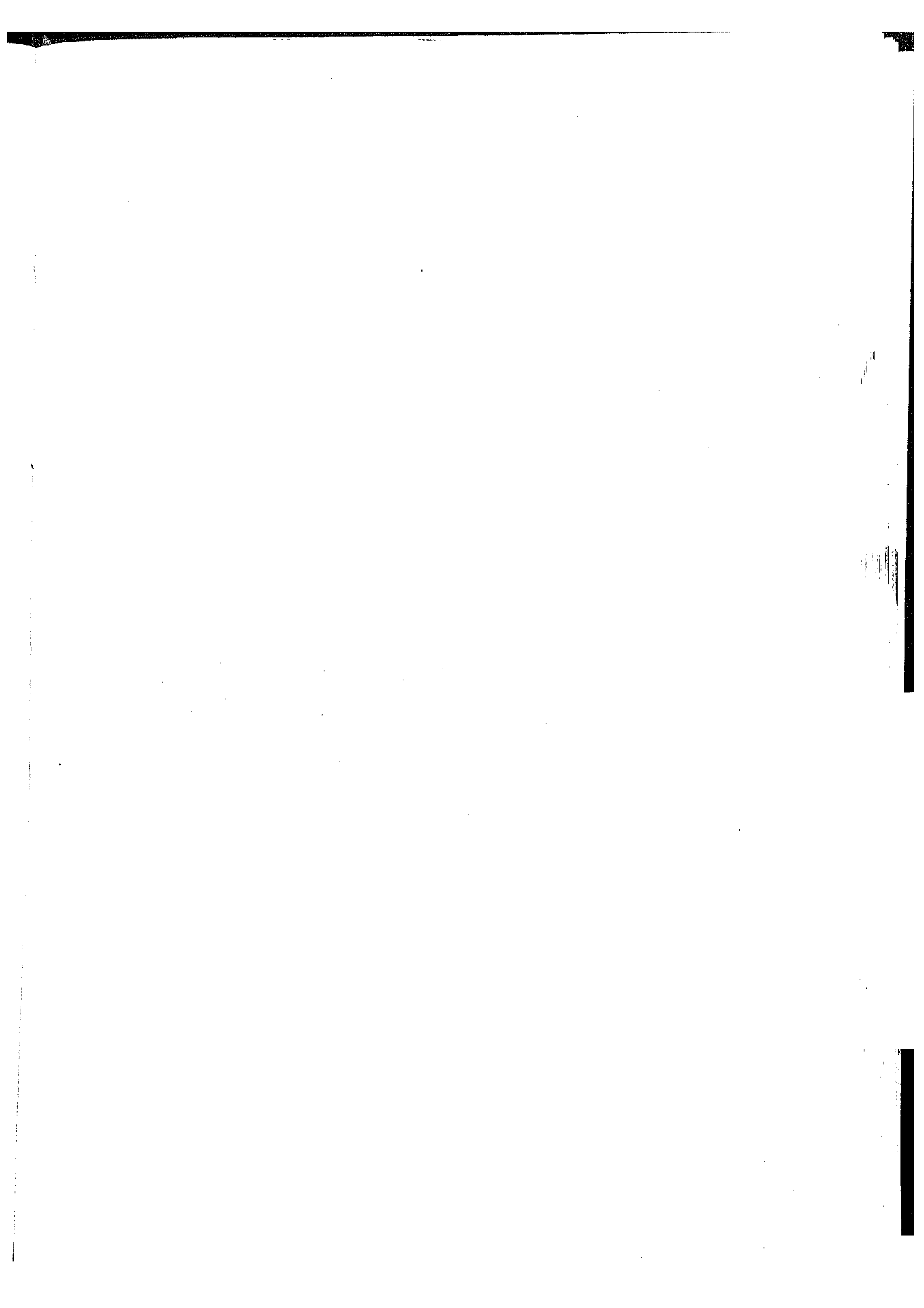
(١٧) رواه أحمد .

(١٨) الاسراء : ٨٢

قال تعـالى :

« يا أيهـا النبى انا أرسـلناك شـاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضـلا كبيرا » .

(الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٧)



امـة مؤمنة وأخرى كافرة

... لقد حملت الأمة العربية مشاعل الحضارة الاسلامية فى مشـــارق الأرض ومغاربها بعـــد أن تآلفت القبائل وتآخت وتراحمت ... وصارت أمة لها قاعدتها فى الحياة ... ولها غايتها النبيلة فى الدنيا والآخرة ... ولها مثلها العليا ... وقيمهـــا الاجتماعية التى لم تر الانسانية حضارة تماثلها فى الحضـــارات التى سبقتها ، ولا فى التى تلتها .

... ذلك لأنها حضارة كرست نظامها الاقتصادى ... والسياسى ... والاجتماعى لســـعادة الانسان وأمنه مع نفسه ... ومع أسرته ... ومجتمعه ...

ولو تدبرنا سر أزدهار الحضارة الاسلامية لوجدناه فى تعهد الرسول صلى الله عليه وسلم للفرد والجماعة ... حتى تربت على مبادىء الاسلام السامية .

... تعهـــد الفرد فى يقينـــه بربه ... وقوة ايمانه ... وصدقه فى الدعوة الى الله ...

وتعهد جماعة المســـلمين ورعاها حتى صـــاروا فى ســـنين معدودات قادة الدنيا وسادتها ... وأقاموا هـــذه الحضـــارة السامقة على دعائم الحق ... والهدى .. والنور ...

••• ولعل خير سبيل ندرك به رحمة الله بأمة العرب •••
ويد الرسول الرحيمة التى أخذت بأيدى هـذه القبائل حتى
صارت أمة راقية تهدى الناس ••••

لعل خير سبيل لهذا هو أن نقابل بين حياتين •••• حياة
العرب قبل الاسلام ••• وحياتهم بعده ، لنرى آثار رحمـة الله
للعالمين بالعرب لمـا استنت بسنته ••• واقتدت به ••• واهتدت
بهديه •

حيـاة العرب قبـل الاسـلام :

••• عاشت العرب قبل الاسلام بعقيدة فاسدة ••• وبنظام
قبلى مدمر ، وبعادات اجتماعية قاتلة ••

أما عقيدتها الفاسدة فقد شرعت لهـا السـدنة ، وزينت
الباطل حقا ، والشرك ايمانا ، وعبادة الأصنام دينا • فضلت
عن سواء الصراط ، وطافت حول الطواغيت ، وأهدت لهـا •
وغيرت وبدلت فى الحنيفية التى جاء بها أبو الأنبيـاء ابراهيم
عليه الصلاة والسلام •

أما عاداتها ، وقيمها الجاهلية ، وعلاقاتها ، ومعاملاتها ،
وحياتها الاجتماعية ، فكانت وبالا على الفرد والجماعة ، وخسرانا
مبينـا •

وحسبنا دليلا على ذلك وأد البنات اذا بلغن سن الزواج ولم يتزوجن • فقد كانت هذه العادة فى عرف المجتمع شرفا وفخارا ، وهو فى حقيقة الأمر ، وعرف الانسانية ذلة وعار •

وكانت الأسرة وهى تقر هذه العادة المدمرة لكل قيمة خلقية ، وعلاقة اجتماعية ، تقضى على أسمى علاقة فى الوجود ، وأنبل عاطفة فى الأسرة • تلك هى عاطفة الرحمة والمودة ، والحب والألفة ، والرفق والتعاطف •

حقا لقد كانوا يدفنون الغاية التى تكونت لها الأسرة ، ويهيلون التراب على المودة والرحمة التى بينتها آيات الله البينات فى قوله تعالى :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[1] •

لكن القلوب القاسية ، والنفوس المظلمة ، والعقول المريضة زينت المنكر معروفا ، والباطل حقا ، فاتبعوا أهواءهم ، وانقادوا لشيطانهم كما بينت ذلك آيات الله فى قوله تعالى :

﴿ واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾[2] •

---

(١) الروم : ٢١

(٢) النمل : ٥٩ : ٦٠

أما الحياة القبلية فقد أودت بكل علاقة كريمة ، وبكل معاملة حسنة بين الفرد والجماعة ، فكان البطش والبغى والعدوان من سماتها ، والسلب والقتل وهتك الأعراض من دعائم كيانها .

فلا غرابة أن نرى المرأة الجاهلية وقد أنكرت أنوثتها ، ورقة مشاعرها ، وتطبعت بما أوحت اليها آلهتها اللات ، والعزى وهبل ، فصارت مثلها لا تبصر ، ولا تسمع ، واستبدلت رقة قلبها بقسوة الحجارة التى عبدتها ، وسبحت بحمدها .

ولا عجب أن نرى هند بنت أبى سفيان تبقر بطن سيد الشهداء حمزة ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وتلوك كبده بأسنانها فى غزوة « أحد » .

وناهيك عن مجتمع هذا شأن نسائه ، فما بالك برجاله ، وما أمره فى حربه وسلمه ، وغناه وفقره ، وقوته وضعفه ، وفى الحاده وكفره وشركه .

ولعلنا لن نحتاج الى من يبين لنا فضل الاسلام على العرب ، ولا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أخرجهم من ظلمات الجاهلية الى نور الرحمة الالهية .

لن نحتاج الى جهد نبذله لندلك على ذلك ، ولكن حسبنا أن نرى كيف تبدلت قسوة قلب سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله

عنه رحمة ، وألفة ، ومودة بعد اسلامه ، وكيف خرج من المسجد يسأل عن بكاء طفل رق له قلبه ، ويحاور أم الطفل عن سر بكائه هذا الحوار :

عمر : ويحك . انى لأراك أم سوء ، لماذا يبكى ابنك ؟!

الأم : اسأل عمر بن الخطاب .

عمر : وما شأن عمر بن الخطاب ببكاء ابنك ؟

الأم : انه يبكى هكذا منذ أربعة أيام ، لقد فطمته وهو لم يكمل الحول .

عمر : لماذا فطمته ؟

الأم : لأن عمر بن الخطاب لا يفرض فى بيت المال الا للطفل الفطيم .

فاذا بعمر يرق قلبه ، ويأمر مناديا ينادى فى الناس بأن لا يمنعوا أطفالهم من الرضاع لأنه سيفرض لكل مولود ، والأسمى من ذلك أن يرق قلبه ولا يدع أحدا من أمة الاسلام ليجرح مشاعر لقيط ظلمه أبواه ، ونبذاه دون رحمة ولا شفقة خوفا من الفضيحة والعار ، فكان لا يفرض لمن يتكفل بتربية اللقيط الا بعد أن يقسم أمامه بأن لا يجرح مشاعره ، ولا يؤذيه اذا كبر ، ولا ينال من كرامته ولا يخبره بأنه لقيط .

وعمر الذى حفظ للقيط آدميته ، وأبى هوانه وذلته ، وأخذ على كفيله العهد أن لا يخبره بحقيقة أمره لما يبلغ أشده ، كان قبل اسلامه قاسى القلب ، فظا غليظا ، لا يحن لكسير الخاطر ، ولا لفقير ، وكان يضرب جارية بنى مؤمل لما أسلمت ضربا مبرحا دون شفقة ، ولا يضع السوط من يده الا بعد أن يمل من ضربها وهو يقول : ما تركتك الا ملالة .

وتبدو لنا صورة عمر بعد اسلامه مناقضة لصورته فى الجاهلية ، لأن رحمة الله لما هلت بشائرها بمبعث الرحمة المهداة ، لانت القلوب ورقت ، وحسنت الأخلاق وسمت ، وصارت أمة العرب فى أخلاقها ، ومعاملاتها ، وتوادها وتراحمها مرآة ترى فيها الانسانية مبادىء الاسلام السامية .

جعفر بن أبى طالب والنجاشى :

ان السمو الوجدانى ، والرقى الخلقى ، والتآلف الروحى بين المسلمين ليزداد وضوحا ان عرفنا ما قاله سيدنا جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه للنجاشى مبينا فضل النبى صلى الله عليه وسلم على العرب ، ومقارنا بين حياتين متقابلتين ، حياة جاهلية كحياة الأنعام أو أضل سبيلا ، وحياة بعد الاسلام كرمت الانسان وشرفت الانسانية بقيمها ، ومثلها وعزتها .

قال جعفر للنجاشي :

« أيها الملك ... كنا قوما أهل جاهلية .. نعبد الأصنام ونأكل الميتة ... ونأتى الفواحش ... ونقطع الأرحام .. ونسيء الجوار ... ويأكل القوى منا الضعيف .. فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ... نعرف نسبه ... وصدقه ... وأمانته ... وعفافه .. فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ... ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان .... وأمرنا بصدق الحديث ... وأداء الأمانة .. وصلة الرحم .. وحسن الجوار ... والكف عن المحارم والدم ... ونهانا عن الفواحش ... وقول الزور ... وأكل مال اليتيم ... وقذف المحصنات ... وأمرنا أن نعبد الله وحده ... ولا نشرك به شيئا ... وأمرنا بالصلاة ... والزكاة ... والصيام ...

كانت حياة العربى قبل الاسلام لا تمت الى الآدمية بصلة ... أما حياته بعد الاسلام ... فتبدو لنا من خطبة جعفر رضى الله عنه حياة راقية ... وعلاقات مع مجتمعه كريمة ... والتزام مع النفس بكل معانى الخير ... وعبادة صحيحة علمها لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنها رب العزة والجلال ..

وتبدلت الأحوال .. لما أسلم العربى نفسه وماله وولده

لربه •• ابتغاء مرضـاته ••• فصـار يلهج بالثناء على ذاته العليـا ••• ويدعـو ربه بأسـمائه الحسـنى ••• يدعـوه شـافيا ••• ومحييا ومميتا •• ويدعوه •• هاديا •• ورازقـا جواد كريما •• ويدعوه قويا عزيزا •• شـديد العقاب ••• غفورا رحيما ••

لقـد امتزجت روحه بآيات الله ••• وصارت فى شفافيتها تلهج بحمد الله ••• فى خشـوع ••• وتتضرع الى المغفرة والرحمـة والرضـا والرضوان ••• ويتردد فى قلبه صـدى قوله تعـالى :

﴿ ••• الذى خلقنى فهـو يهـدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾[٣] •

لقد اطمأنت النفس بكتاب ربها • بعد أن كانت من قبل ثائرة تموج وتضطرب بما يمليه عليها شيطانها ••• كما بشرها بذلك رسولها صلى الله عليه وسلم وقال :

« ••• ما اجتمع قوم فى بيت من بيـوت الله •• يتلون كتاب الله ••• ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة •••

---

(٣) الشـعراء ٧٨ ـ ٨١

وغشيتهم الرحمة .. وحفتهم الملائكة ... وذكرهم الله فيمن عنـــده »(٤) .

... هـــذه الســـكينة التى تنزلت على العربى بعـد اسلامه ... والرحمة التى تغشـــته .. لازمتـــه فى صحته .. ومرضه ... فى قوته وضعفه ... فى غناه وفقره ... وفى يقظته وفى منامه .. فقـــد اهتدى بهدى نبيه ... وعبر عن ســـكينة نفســـه ... وهو يقول حين ينام .. كمـــا علمه رسوله صلى الله عليه وسلم :

« ... اللهم أســـلمت نفسى اليك ... ووجهت وجهى اليـــك ... وفوضت أمرى اليـــك ... وألجـــأت ظهـــرى اليك ... رغبـــة ورهبة اليـــك .. لا ملجأ ولا منجى منـــك الا اليـــك ... آمنت بكتابك الذى أنزلت ... ونبيك الذى أرســـلت »(٥) .

... هذا شأن العربى بعد اسلامه فى منامه ... فما شأنه فى يقظته ... وفى يسره وعسره .

... انه يأخـــذ بالأسباب ان أصابته ملمـــة ... ويدع الأمر لله .. يفعل به ما يشـــاء .

---

(٤) رواه مســـلم .

(٥) رواه البخارى .

... وهو فيما يفعله .. يتبع نبيه . الذى أسلم نفسه لربه لما دعا ثقيف الى الله فى الطائف .. فكذبه سادة ثقيف ... وأغروا صبيانهم وسفهاءهم يسبونه ويقذفونه بالحجارة .. فلجأ الى ربه يشكو ما فعله القوم به ... ويطلب رحمته ومغفرته ويقول : « ... اللهم اليك أشكو ضعف قوتى .. وقلة حيلتى ... وهوانى على الناس .. يا أرحم الراحمين ... أنت رب المستضعفين وأنت ربى .. الى من تكلنى ... الى بعيد يتجهمنى ... أم الى عدو ملكته أمرى ... ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى .. ولكن عافيتك هى أوسع لى .... أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات .. وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل على غضبك ... أو يحل على سخطك ... لك العتبى حتى ترضى ... ولا حول ولا قوة الا بالله ... » .

واستنت العرب بهذه السنة الحميدة ... واقتدت بهذه القدوة الصالحة لما أسلمت روحها الى بارئها فى كل أمر من أمور حياتها .

... لكن العربى بعد اسلامه وهو يفعل ذلك أدى ما ألزمه به ربه ... فحفظ عهده وميثاقه معه ... فأسلمت مع نفسه .. ومع قلبه ... جوارحه ... فهو بهذا الأمن والأمان النفسى .

... وبهذه السريرة الطـاهرة .. والقلب المطمئن حفظ لســانه من كل فحش ... وجوارحه من كل خطيئة .. فحفظه ربه ... كما بشره بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الشريف الذى رواه عبدالله بن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « يا غلام انى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ... احفظ الله تجده تجاهك ... اذا سألت فاسأل الله ... واذا استعنت فاستعن بالله ... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ... وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قــد كتبه الله عليك ... رفعت الأقلام ... وجفت الصحف »(٦)

* * *

(٦) رواه الترمذى .. وقال حديث حسن صحيح ...

قال تعالى :

« ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها .
قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » .

(الشمس : ٧ ــ ١٠)

النفس التقيــة

... لقد ارتقت نفس العربى بعد اســلامه ... وسمت ..
واهتدت .. وعادت الى فطرتها السوية التى فطرها الله عليها ...
وأشرقت بنور ربها .... ونبذت كل نقيصة تشينها .... وتطهرت
من عللها وأمراضها ... والتزمت بمكارم الأخلاق التى دعاها
اليها نبيها صلى الله عليه وسلم حيث قال :

« ... اياكم والظن .. فان الظن أكذب الحديث ...
ولا تحسســوا ... ولا تجسســوا .... ولا تنافســوا ...
ولا تحاســدوا ... ولا تباغضــوا .... ولا تدابروا ..
وكونوا عبــاد الله اخوانا ... المسـلم أخـو المســلم ....
لا يظلمــه ... ولا يخــذله ... ولا يحقــره ... التقــوى
هاهنــا ... التقوى ها هنا ــ وأشــار الى صدره الشريف ــ
بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخــاه المســلم .... كل المسلم
على المسلم حرام : دمه ... وعرضه ... ودينه »[1] .

... رأت الصحابة رضــوان الله عليهم التقوى فى رسول
الله صلى الله عليه وسلم .... ورأوا الطهارة والنقاء ... ورأوا
صــفاء النفس وهو يوجه الناس ويرشــدهم .. ويحذر من

---

(١) رواه مالك والبخارى ومسلم واللفظ له ..

يوغر صدره بما حدث بينه وبين من حوله ... كما قال في حديثه الشريف : « ... لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا ... فاني أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر »[٢] .

.... ثم أراهم صفاء النفس ... ونقاء السريرة في غيره من الصحابة رضوان الله عليهم .

... لقد رأوا بأعين رءوسهم أن الأعمال بالنيات وأن من أخلص وصدق ربه فله حسن الثواب .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « ... كنا جلوسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة ... فطلع رجل من الأنصار تنطف[٣] لحيته من وضوئه وقد علق نعليه بيده الشمال ....

قال أنس رضي الله عنه : ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال ذلك ثلاث مرات ... فلم يكن الا ذلك الرجل ... فلما قام الرجل تبعه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، وقال له :

« ... اني لاحيت أبي[٤] فأقسمت أن لا أدخل ثلاثا ... فان رأيت أن تؤويني اليك حتى تمضي فعلت .

---

(٢) رواه أبو داود . (٣) تقطر ماء .
(٤) خاصمت .

••• قال عبد الله بن عمرو رضى الله عنه بعد أن بات معه ثلاث ليال انه لم يره يقوم من الليل شيئا ، غير أنه اذا تعار(٥) •• ذكر الله عز وجل حتى صلاة الفجر وانه لم يسمعه يقول الا خيرا ، حتى كاد عبد الله بن عمرو رضى الله عنه أن يحتقر عمله •• وسأله عن الذى بلغ به ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ••• قال الرجل : ما هو الا ما رأيت ، غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشا •• ولا أحسد أحدا على خير أعطاه الله اياه ••• فقال عبد الله رضى الله عنه : هذه التى بلغت بك » •

••• ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرقى بالنفس البشرية ••• ويسمو بها ••• حتى كاد الصحابى أن يشم عرف(*) الجنة لما خشى ربه واتقاه ••• وحتى كادت النار تلفحه بلهيبها ان خالفه وعصاه •

••• روى الطبرانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للحارث بن مالك الأنصارى : كيف أصبحت يا حارثة ؟

قال : أصبحت بحمد الله مؤمنا حق الايمان ••

قال : انظر ماذا تقول يا حارثة ؟ ••• وما حقيقة ايمانك ؟!

---

(٥) بالراء المشددة المفتوحة ، استيقظ من الليل .
(*) بفتح العين : الرائحة .

قال حارثة : لقد عزفت نفسى عن الدنيا ... وأقبلت على الآخرة ... فأسهرت ليلى .. وأظمأت نهارى ... فصرت كأنى أنظر الى عرش ربى بارزا ... والى أهل الجنة فى الجنة يتزاورون ... والى أهل النار فى النار يتضاغون ويبكون ...

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

... لقد عرفت يا حارثة فالزم[٦] .

... ولعل فيما فعلته المرأة العربية التى اتبعت هواها .. لدليلا على أن النفس التى تعهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بتربيتها لم تعد ترضى بالخطيئة ... فان أضلها شيطانها باتت تلوم صاحبها ... وتنغص عليه أمنه حتى تتطهر كما أراد لها نبيها صلى الله عليه وسلم .

... عن عمران بن الحصين رضى الله عنه أن امرأة من جهينة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى حبلى من الزنا ، فقالت :

« .. يا نبى الله أصبت حدا فأقمه على ... فدعا

(٦) رواه الطبرانى .

نبى الله صلى الله عليه وسلم وليها ... فقال : أحسن اليها .. فاذا وضعت فأتنى بها ... ففعل ... فأمر بها نبى الله صلى الله عليه وسلم ... فشكت عليها ثيابها ... ثم أمر بها ... فرجمت ثم صلى عليها ...

فقال له عمر : تصلى عليها يا نبى الله وقد زنت ... قال : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ... وهل وجدت توبة أفضل أن جادت بنفسها لله تعالى(٧) .

النفس المطمئنة وفتنة المال :

... اطمأنت النفس لما سقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم من فيض رحمته ، وبعث فيها الرضا بما قسمه الله وقال :

« من أصبح منكم آمنا فى سربه ، معافى فى جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »(٨) .

ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوصى أتباعه بالقناعة ويقبل هو على الدنيا ــ وحاشا أن يفعل ذلك

---

(٧) رواه مسلم .　　(٨) رواه الترمذى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بل كان فى بيته ، ومع أهله مثلا للقناعة ، والزهد ، والرضا بما قسمه الله له .

وحسبنا دليلا على ذلك ما تركه بعد أن لحق بجوار ربه وهو الذى كانت تأتيه الغنائم وأموال الزكاة ، والذى دانت له جزيرة العرب كلها ، وأسلمت قيادها ، بعد أن اهتدت بهدى نبيها .

لقد ترك صلى الله عليه وسلم درعه مرهونة عند يهودى ، كما تروى ذلك أم المؤمنين رضى الله عنها .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاع من شعير »[٩] .

وما أعمق ايمان العبد المسلم الذى تشرى نفسه ، فلا يطمع فى ما لا حق له فيه ، والذى لا يعد المال غاية يسعى اليها ، والذى صدق فيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس »[١٠] .

---

(٩) متفق عليه .
(١٠) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى .

ذلك أن النفس ان لم تغنى بايمانها فترضى بما من الله عليها ، ظلت فقيرة أبـد الدهـر ، ولو ملكت الدنيـا بذهبها وفضـتها .

ولعلنـا لو نظرنا حولنـا لرأينا المـال غاية النـاس فى عصرنا الحاضر الذى اتسم بالمـادية فى أمور حياتها كلها حتى كادت فتنة المـال أن تقوض دعائمها ، فتنهار على رءوس عبـاد المـال ، كما انهارت الحضارات التى سبقتها .

ان رسـول الله صلى الله عليه وسلم كان يربى النفوس الجشعة كما تربى الأم طفلها الرضيع ، وفى نصائحه للصـحابى حكيم بن حزام رضى الله عنـه خير دليـل على ذلك .

... قال حكيم بن حزام رضى الله عنه : سـألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطانى ... ثم سـألته فأعطانى ... ثم سـألته فأعطانى ... ثم قال : « يا حكيم ... ان هذا المـال خضر حلو ... فمن أخـذه بسخاوة نفس بورك له فيـه ... ومن أخـذه باشراف نفس لم يبارك له فيـه .. وكان كالذى يأكل ولا يشـبع ... واليد العليا خير من اليـد السفلى » .

قال حكيم : فقلت يا رسـول الله والذى بعثك بالحـق لا أرزأ أحـدا بعـدك شـيئا حتى أفارق الدنيا .

•• وكان أبو بكر رضى الله عنه يدعو حكيما ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئا •

••• ثم ان عمر رضى الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله فقال :

« يا معشر المسلمين أشهدكم على حكيم ••• انى أعرض عليه حقه الذى قسمه الله له فى هذا الفىء فيأبى أن يأخذه • فلم يرزأ حكيم أحدا من الناس بعد النبى صلى الله عليه وسلم حتى توفى »[11] •

وكان لهذه النفس النقية الراضية المطمئنة التى عرفت عظمة ربها وجبروته ••• واطمأنت لرحمته ومغفرته وجناته •• أثرها فى العلاقات الاجتماعية ••• فصاحبها ان عمل خيرا فى دنياه : لا يبغى الا رضا مولاه ••• لالتزامه فى ذلك بالحديث القدسى :

••• عن أبى هريرة رضى الله عنه ••• قال ••• قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ••• ان الله عز وجل يقول يوم القيامة : ••• يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى ؟ ••• قال : يارب كيف أعودك وأنت رب

(١١) متفق عليه .

العالمين ؟! قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض ولم تعده ... أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنـده ؟ ... يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى ... قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟! .. قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمـه ؟ ... أما علمت أنك لو أطعمتـه لوجـدت ذلك عندى ؟ .. يا ابن آدم استسقيتك فلم تسـقنى ؟! ... قال : يا رب كيف أسـقيك وأنت رب العالمين ؟! ... قال : استسقاك عبـدى فلان فلم تسـقه ... أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عنـدى[12] .

وتعهد رسـول الله صلى الله عليه وسلم النفوس المظلمة التى أضـلها الشـيطان فأشرقت بنور ربهـا لمـا ألهمها ربها تقواها فآتت أكلها : صـدقا ، ووفاء ، وكرما ، واحسانا ... وأثمرت برحمة ربها عمـلا صـالحا ، وايمانا كاملا ، ويقينـا صـادقا ... وتآلفت زوجا وزوجة ، وولدا وخدما ، ورحما وجـارا ...

... وصـارت الأسرة المسلمة آية من آيات الله .. ونواة لمجتمع اسلامى قام على دعائم الحق والهدى ، والبر والتقوى ، والتعاون والجهاد ...

* * *

---

(١٢) رواه مسلم .

قال تعالى :

﴿ ... ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة . ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

(الروم : ١١)

الأسـرة المسـلمة

رحمة الله للعالمين والاسر المسلمة .

تعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء النفوس على هدى مبادىء الاسلام السامية ، فتآلفت وتحابت وصارت بنعمة الله اخوانا . ومن هذه القلوب المشرقة بنور الله ، والنفوس التقية بفضل الله تكونت الأسرة المسلمة .

والأسرة المسلمة آية من آيات الله بتراحمها وتآلفها وتعاونها على ما فيه الخير لها ولمن حولها .

فالزوج مظلة يقي زوجته قيظ الحياة ، فتنعم معه بطيب العيش وتنهل معه من أسمى معانيها مودة ، وألفة ، ورحمة .

وهو درعها التي تتقي به غدرات الزمان ، ومنغصات الحياة ، وهو الذي يحمي زمارها ، ويصون كرامتها ، ويمهد لها سبل العيش الآمنة لتمضي معه حياتها في هناءة البال ، ورغد العيش .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة لمن عاصره ، ومن جاء بعده ، وسيظل أسوة حسنة للانسان حيث كان حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وتراحمت الأسرة وتآلفت وتحابت ، لما اقتدت برحمة الله فى معاملته لزوجه وولده وخدمه ومواليه ، فاستقت الأسرة المسلمة من نبع الرحمة الفياض ، واتبعت أثر النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته مع أسرته شبرا بشبر ، وذراعا بذراع .

رحمة الله للعالمين وامهات المؤمنين :

وكانت رحمته التى بعثه الله بها للعالمين من أهم دوافعه فى زواجه صلى الله عليه وسلم بأمهات المؤمنين .

فقد تزوج « سودة بنت زمعة » رضى الله عنها بعد موت زوجها ليعولها . وكان زوجها من السابقين فى الاسلام .

وتزوج « أم سلمة » رضى الله عنها بعد موت زوجها اثر جراحه فى غزوة « أحد » ليعولها هى وأولادها .

وتزوج أم حبيبة « رملة بنت أبى سفيان » رضى الله عنها ، وكانت ممن أسلموا وهاجروا الى الحبشة ... وهناك تنصر زوجها ... وتركها فريسة الخوف من عقاب أبيها ان عادت الى مكة المكرمة ... والخشية من الغربة دون زوج وولد ومال ان بقيت فى الحبشة ... فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمنها من انتقام المشركين ان عادت ... أو آلام غربتها ان آثرت البقاء فى الحبشة ...

وتزوج صلى الله عليه وسلم « زينب بنت خزيمة » بعد أن استشهد زوجها عبد الله بن جحش رضى الله عنه فى غزوة « أحد » ... تزوجها وتكفل بها ، اذ لم يكن لها كفيل من قومها .

وتزوج صلى الله عليه وسلم « صفية بنت حيى » بعد أن هلك زوجها وأخوها ... وهلك معهم أبوها سيد بنى قريظة فى قتالهم المسلمين ... ووقعت فى سهم جندى لا يعلم عنها شيئا الا أنها أسيرة حرب ... فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم لحالها وخيرها بين أمرين ... اما أن يردها الى أهلها أو يعتقها ويتزوجها ، فاختارته وآثرته على قومها وأسلمت ودخل بها مسلمة رضى الله عنها .

وتزوج « جويرية بنت الحارث » ... وكانت من سبايا غزوة « بنى المصطلق » ... فتزوجها بعد أن أعتقها ... فصارت من أمهات المسلمين بعد أن كانت أسيرة حرب لا يعلم مالكها من أمرها شيئا ...

ثم حث رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين على الاقتداء به ، فأطلقوا سباياهم ... فأسلموا ... وحسن اسلامهم فكانت خيرا وبركة على قومها جميعا .

وتمثل قصده الكريم فى حياة أسرية متحابة متراحمة ... وكانت مثالا للأسرة المسلمة التى أرادها رسول الله صلى

الله عليه وسلم للمسلمين ، والتى اهتدى بها صحابته رضوان الله عليهم فأقاموا بدورهم أسرا متوادة متآلفة .

رحمة الله للعالمين واهل بيتـه :

ان جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم لتعبر أدق تعبير عن رحمته صلى الله عليه وسلم بأسرته وذلك فى حديثه الشريف الذى قال فيه : «خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى»[1] .

لقد كان صلى الله عليه وسلم خير العالمين لأهله ، وهو يعاونهم فيما يعملون ، ويرشدهم الى ما لا يعلمون ، ويغفر لهم ما يجهلون ، ولا يحملهم ما لا يطيقون .

ولقد سئلت عائشة رضى الله عنها : « ما كان النبى يصنع فى بيته ؟ .. قالت : يكون فى مهنة(*) أهله ، فاذا حضرت الصلاة قام الى الصلاة »[2] .

كان صلى الله عليه وسلم لا يأنف من عمل فى بيته ، وكان يخيط ثوبه ، ويخصف نعله .

وكان رفيقا بأهله ، وكان يوصى أهله بالرفق بأنفسهم وبمن حولهم .

---

(١) رواه أبو حبان . (*) بفتح الميم : راجع المختار .
(٢) رواه البخارى .

عن عائشة رضى الله عنها قالت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عائشـــة ارفقى فان الله اذا أراد بأهل بيت خيرا أدخل عليهم الرفق »[٣] .

وكان الرفق سمة من سمات أسرة الرسول صلى الله عليه وســـلم ، وروحا ملائكية سرت فى تعاملهم وتعاطفهم .

وكانت الرحمة والمودة والألفة هى اللغـــة التى تتحدث بها أسرة الرســـول صلى الله عليه وسلم ... وقد انسابت من موردهـــا هينـــة لينـــة فى مشـــاعر الأسرة ، فاســـتقت من رحمـــة الله للعـــالمين لمـــا رأته أمامهـــا نبعـــا فياضـــا بالرحمة ، كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وقالت : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده ، ولا امرأة ، ولا خادما ، الا أن يجاهد فى ســـبيل الله ، وما نيل منـــه شىء فينتقم من صاحبه ، الا أن ينتهك شىء من محارم الله تعالى ، فينتقم لله تعالى »[٤] .

رحمة الله للعالمين وحادثة الافك :

ولم تقتصر رحمته صلى الله عليه وسلم بأسرته على اليسير من أمور الحياة ، بل انه كان يســـع بقلبـــه الكبير الكثير من منغصاتها .

---

(٣) رواه أحمد والبزار .　　　(٤) رواه مسلم .

لقد رأت العرب .. وأمة الاسلام زحمته بأهله لما انطلقت ألسنة السوء تتهم أم المؤمنين رضى الله عنها مع صفوان بن المعطل في عودتهما من غزوة بنى المصطلق .

ذلك أن أم المؤمنين تأخرت عن الركب وكان صفوان ابن المعطل خلف الركب ، فعاد بها الى المدينة المنورة ، وابتلى بيت النبوة بالقيل والقال ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع ما يقال من أهل الافك والضلال على بيت طهره ربه واصطفاه ولا يجرح مشاعر أهله ولو بنظرة جارحة .

فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم برحمته التى وسعت حماقات البشر حتى تنزلت الرحمات من السماء تبرىء أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى قوله تعالى :

« ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لاتحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم »[٥] .

وكانت حادثة الافك عظة وعبرة لأمة الاسلام ، وترجمة

---

(٥) النور : ١١

صـادقة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

ذلك أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قد رحم بصبره على أقوال أهل الأفك ، وحكمته فى معالجة أمره ، ورحمته بأهله المسلمين حتى لا يقيموا الدنيا لقالة خبيثة يطلقها فاسق ، يريد السـوء الأسرة متراحمة

ولقد امتزجت مشاعره بمشاعر أهله ، وصـار يرى بنور بصيرته ، ونقاء سريرته ، وصـفاء قريحته ، وسـمو نفسه ، ورقيه الروحى خلجات نفوسهم ، وهمسـات صدورهم ، فيتألم اذا تألموا ، ويفرح اذا فرحوا .

عن عائشـة رضى الله عنها قالت : قال لى رسـول الله صلى الله عليه وسلم « انى لأعلم اذا كنت عنى راضية ، واذا كنت على غضبى » فقلت : من أين تعرف ذلك ؟

فقال : « اذا كنت عنى راضية فانك تقولين : لا ورب محمد واذا كنت على غضبى . قلت : لا ورب ابراهيم .

قلت : أجل . والله يا رسول الله ما أهجر الا اسمك »[٦].

---

(٦) متفق عليه .

وصايا‌ه الشريفة للأسرة :

نالت الزوجة حظها من الرحمة ، وتعددت أحاديثه ، ووصاياه ، وخطبه التى تناول فيها الزوجة وبين فيها للزوج ضعفها ، ودعاه الى الرفق فى معاملتها ، واضعا فى اعتباره طبعها ورقة مشاعرها .

قال صلى الله عليه وسلم « استوصوا بالنساء خيرا ، فان المرأة خلقت من ضلع أعوج ، وان أعوج ما فى الضلع أعلاه ، فان ذهبت تقيمه كسرته ، وان تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا »(٧) .

وذكرنا رسولنا صلى الله عليه وسلم بطبعنا الذى لازمنا منذ بدء الخليقة ، والذى نالت المرأة منها ــ بحكم جنسها ــ منه الحظ الأكبر .

ذلك أن ابن آدم خطاء بطبعه ، والمرأة أكثر خطأ من الرجل لذا دعا الرسول صلى الله عليه وسلم الزوج ليضع هذا النقص فى اعتباره ان أخطأت زوجته ، ويذكر لها ما قدمته له من طيب القول وصالح العمل .

---

(٧) متفق عليه .

وأوصاه بأن يزن أعمالها .. ويضع فى كفة ميزانها حسناتها وسجاياها الحميدة ان أثارته يوما ما نقيصة يأباها .

... عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يفرك[8] مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقا رضى منها آخر ، أو قال : « غيره »[9] .

كما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم حقوق الزوجة على زوجها ، وحدث بأن من أولى حقوقها النفقة عليها ... وقيامه بشئونها ...

عن معاوية بن حيدة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ .. قال « أن تطعمها ان طعمت ... وتكسوها اذا إكتسيت ... ولا تضرب الوجه .. ولا تقبح .. ولا تهجر الا فى البيت »[10] ....

..... وللزوج حقه الذى بينته الأحاديث الشريفة .. هذا الحق الذى ان التزمت به الزوجة دخلت الجنة كما بشرها بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال :

---

(٨) يبغض .
(٩) رواه مسلم .
(١٠) رواه مسلم .

« اذا صلت المرأة خمسها ... وحصنت فرجها ... وأطاعت بعلها ... دخلت الجنة من أى الأبواب شاءت »[11] .

ثم كان هذا الحديث النبوى الشريف الذى بين فيه مقام الزوج .. والذى لا يعلوه مقام .... ولا تعلوه منزلة ، والذى ان التزمت به الزوجة كانت ريحانة حياته .... وسكينة نفسه ... وطمأنينة قلبه ... فلا تقع عينه ... ولا أذنه منها على قبيح يؤذى مشاعره ... ويعكر صفو حياته ...

هذا الحديث الشريف الذى وضعه الاسلام وساما على جبين المودة والألفة والطاعة والمحبة بين الزوج وزوجه ، والذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها »[12] .

رحمة الله للعالمين واختيار الزوجة الصالحة :

ان الأسرة المتعاطفة المتراحمة المتآلفة المتعاونة لبنة صالحة لصرح اجتماعى شامخ ، غايته الأولى سعادة البشر فى الدنيا والآخرة ....

---

(١١) رواه ابن حبان فى صحيحه .
(١٢) رواه الترمذى .

هــذه الأسرة لم تكن لتلتقى الا على دعائم من الرضــا والقبول والوفاق النفسى والروحى ... وعلى أسس تتفق وطبيعة البشر وتكوينهم الثقافى .. وعاداتهم .. وأخلاقهم ... وطبقاتهم الاجتماعية وميولهم وأمزجتهم المختلفة .

... لذلك دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نختار المرأة التى نبنى معهــا الخلية الأولى للمجتمع .. فان صلحت صلح المجتمع كله ، وان فسدت فسد المجتمع كله ...

ولم يدع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته الا على بينة من الأمر ... فأوصاهم باختيار الزوجة التى ترغب المرء نكاحها وبين لهم السبيل الى ذلك وقال : « اذا خطب أحــدكم المرأة ، فان استطاع أن ينظر منها ما يدعوه الى نكاحها فليفعل »[13] .

... ولأن ما يدعو الزوج الى نكاح المرأة يختلف من فرد الى آخر .. لاختلاف الميول والأفكار ..

ولأن الأرواح منها ما تأتلف ... ومنها ما تختلف ... لذا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم لأتباعه الســبيل الى المفاضلة لحسبها لم يزده الله الا دناءة ، والتى تدعو الرجل الى اختيار زوجته فقال : « ... تنكح المرأة لأربع لمــالها ... ولحسبها ... ولجمالها ... ولدينهــا ... فاظفر بــذات الدين تربت يداك »[14] ......

---

(١٣) رواه مسلم وابو داود ، والحاكم ، والبيهقى .

(١٤) رواه البخارى ومسلم وابو داود والنسائى وابن ماجه

ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الرجل الى اختيار الزوجة ذات الدين الا لأسباب بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر ... وذكر فيه ... أن ما دون الدين وهم زائل ... وظل غير وارف ... وفتنة وغواية وضلال ..

... فالمـــال وقد يفتن به الرجل ويختار به زوجة قـــد يكون فيه الخسران المبين ... وقد يكون فيه الفساد والافساد الخلقى ...

ذلك أن وظيفة المـــال فى الاسلام بينتها آيات الله البينات ... وأحاديث الرسول صلى الله عليه وســـلم .... فهو أولا وأخيرا مال الله ... ووسيلة لتحقيق غاية .... وليس غاية فى ذاته ....

فان جعلنا الوسيلة غاية صارت وبالا .. وهلاكا ... وخسرانا مبينا ....

والجمال .. وقد يختار به الرجل زوجة قد تفتن به المرأة عن زوجها ... وترد به موارد الرذيلة ان لم يكن مع الجمال تربية وخلق ودين وضمير يقظ يصونه ويحميه ....

وهو مع هذا ظل زائل ... وعرض له أجل محدود يصير بعده وكأن لم يكن ....

لهذا حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من ســـوء العاقبة ان جعلنا المـــال أو الجمال غاية .... وقال : « لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ... ولا تزوجوهن

لاموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن .... ولكن تزوجوهن على الدين ، والأمة خرقاء سوداء ذات دين أفضل »[١٥] .

والرسول صلى الله عليه وسلم وهو يهدينا الى خير السبل فى اختيار الزوجة الصالحة انما يعنى صلاح الأسرة ، فالمجتمع .

فالزوجة ذات الدين غرس لا يثمر الا خيرا .... فهى تعامل زوجها وترعاه فى حله وترحاله .. وتحفظه فى عرضه ومـاله ، وتربى أولاده على البر والتقوى من منطلق الطاعة لمن لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ..

ومن هذا شأنها تؤتى بفضل ربها ثمار اخلاصها بنين وبنات يعرفون حق الله وحـق الوالدين وحـق المجتمع والانسـانية ، ويسهمون فى اعلاء كلمة الله فى قولهم وفعلهم ... ويلتزمون بما أمرهم به ربهم حتى يلقوه راضين مرضيين باذنه ومنه ...

ان الزوجة الصالحة لهى المدرسة الأولى التى تستقبل هذه القلوب الخضراء .. وهذه الأرواح الطاهرة .

... وهى التى تخط بقلبها الطاهر .... وقولها الطيب ... وسلوكها القويم أول كلمات تهدى الصغير الى طريق الهـدى والصلاح ...

وهى التى تزيد زوجها هدى ان رأته يترسم خطى نبيـه ويلتزم بآيات ربه .... وتقومه برقتها ... وصفاء سريرتها ان اتبع هواه ... وضل سعيه وأنسته دنياه أمر أخراه ...

(*) رواه ابن ماجه .

لذا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أختيار الزوجة لحسبها أو لعزها فى قومها سراب ووهم وباطل ، وقال فى حديثه ، « من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله الا ذلا •• ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله الا دناءة ومن تزوجها لم يرد بها الا أن يغض بصره ••• ويحصن فرجة •• أو يصل رحمه •• بارك الله له فيها •••• وبارك لها فيه »(١٥) •

رحمة الله للعالمين ومنزلة الزوجة فى الاسلام :

لم تعد المرأة فى الاسلام سلعة تباع وتشترى بعد أن رد الله لها آدميتها وكرامتها بمبعث رحمة الله للعالمين • • • ولم يعد لوليها أن يفرض عليها زوجا •••• بعد أن بين لها رحمة الله للعالمين حقوقها •••

لذا كانت المرأة تسرع اليه ان أصابها من وليها ما يذهب بحريتها فى اختيار زوجها •••• وسرعان ما يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحق لذويه ••• ويبين للعالمين أن النساء لم يعدن عارا يلحق بالأسرة ••• تلفظنها حية بزواجها ••• أو ميته بوأدها •••

•••• بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ولى فرض على ابنته ابن أخيه •• فذهبت الى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تشكو أباها وتقول :

« ان أبى زوجنى ابن أخيه ليدفع بها خسيسته وأنا كارهة

---

(١٥) رواه الطبرانى فى الأوسط •

... فقالت لهـا : « ... اجلسى حتى يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته ... فأرسل الى أبيها فجعل الأمر اليها فقالت الفتاة :

« يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبى انما أردت أن أعلم النـاس أن ليس الى الآباء فى الأمر شىء »[١٦] .

رحمة الله للعالمين والأولاد :

وتغشت رحمته صلى الله عليه وسلم الأسرة كلها ، وكان لكل من أفرادها حظه من رحمته صلى الله عليه وسلم ..

كان للأولاد حظهم من الرحمة التى من الله بها على عباده ... فقد أوصى بتعليمهم الصـلاة منذ طفولتهم .. حتى تعمر القلوب الطاهرة بالايمان ، قال صلى الله عليه وسلم : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبنـاء سبع سنين ... واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ... وفرقوا بينهم فى المضاجع »[١٧] .

ذلك أن من آمن بربه وركع وسجد حامدا شاكرا نعماءه ... وصلى وصام ... صغيرا ... داوم على ايمانه ... ووصل والديه وبرهما كبيرا ... وانطلق فى حياته يسهم فى رخاء مجتمعه .. وتعهده بكل معانى الخير ... ويبذل فى سبيل المسلمين جهده وماله ... ولا يدخر وسعا فى العطاء لا يبتغى به الا وجه ربه .

وتجلت رحمته صلى الله عليه وسلم وهو يوصى الصحابى

---

(١٦) رواه النسائى .

(١٧) رواه أبو داود .

سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه بابنته .. لما جاءه فى مكة المكرمة يعوده .

وكان سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه يستشيره فى القدر الذى يوصى به لابنته بعد أن يلحق بالرفيق الأعلى ...

.. عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : « جاءنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى فقلت : يا رسول الله قد بلغ بى من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ولا يرثنى الا ابنة أفأتصدق بثلثى مالى ؟ .. قال : لا .. قلت : فالشطر يا رسول الله ... قال : لا .. قلت : فالثلث ... قال : الثلث .. والثلث كثير ... انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ... وانك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله الا أجرت بها حتى ما تجعل فى فى امرأتك ... قال : قلت يا رسول الله .. أخلف بعد أصحابى ؟ قال : انك لن تخلف فتعمل عملا تبتغى به وجه الله الا ازددت درجة ورفعة ، ولعلك ان تخلف حتى ينتفع بك أقوام .. ويضر بك آخرون .

اللهم امض لأصحابى هجرتهم .. ولا تردهم على أعقابهم ... لكن البائس سعد بن خولة »[18] .

(يرثى له رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مات بمكة المكرمة) .

---

(١٨) متفق عليه .

وحتى يشب الأولاد متحابين متآلفين ، أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الآباء أن يؤثر بعض الأبناء على اخوتهم ... وأوصى الصحابة رضوان الله عليهم أن يتقوا الله فى أولادهم ويسووا بينهم فى العطاء ...

... عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما أن أباه أتى به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « انى نحلت ابنى هذا غلاما كان لى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفعلت هذا بولدك كلهم ؟! » .

قال : لا . قال : « اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم » .

وكان صلى الله عليه وسلم يختار الأسماء الحسنة التى لا تنفر السامعين ولا تدعو الى السخرية ...

... وقد فعل ذلك مع حفيده الحسن اذ غير اسمه .. وقد سماه أبوه من قبل حربا .

... وأوصى المسلمين أن يختاروا لأبنائهم الأسماء الحسنة وقال : « تسموا بأسماء الأنبياء ، وأحب الأسماء الى الله عبد الله .. وعبد الرحمن .. وأصدقها حارث وهمام ... وأقبحها حرب ومرة »(١٩) .

ورأى الصحابة رضوان الله عليهم رحمته صلى الله عليه وسلم نابضة بالحياة وهو يسرع الخطى الى ابنته فاطمة رضى الله عنها لما سمع بكاء الحسن رضى الله عنه وهو يقول : « ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى » .

---

(١٩) رواه أبو داود .

ورأى الصحابة رضوان الله عليهم رحمته أمام أعينهم وهو يسقى ولده الحسن من نبع رحمته ويقبله ، وعنده الأقرع بن حابس ... ويقول الأقرع :

« ان لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لا يرحم لا يرحم »[٢٠] .

ورأى الصحابة رضوان الله عليهم رحمته صلى الله عليه وسلم يوم أطال السجود ... فسألوه وقالوا : « لقد أطلت سجودك يا رسول الله » .

قال : « ان ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله » .

ثم رأوا بأعين رءوسهم رحمته صلى الله عليه دموعا يذرفها على ولده ابراهيم وهو يجود بنفسه .

... عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على ابنه ابراهيم وهو يجود بنفسه ... فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان .. فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : ... وأنت يا رسول الله ؟؟ ... فقال : ... يا ابن عوف انها رحمة ، ثم اتبعها بأخرى ... فقال صلى الله عليه وسلم : « ان العين تدمع ... والقلب يحزن ... ولا نقول الا ما يرضى ربنا ... وانا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون »[٢١] .

---

(٢٠) متفق عليه .   (٢١) رواه البخارى ومسلم .

ولقد كان ابتلاؤه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ... فالأسرة التى تنعم بصغارها ... وتشرق وجه الحياة ببراءة أبنائها ... قد تصاب فى فلذات أكبادها .... وقد تمتد يد الموت تقطف زهرة يانعة .. أو شابا افتتن به من حوله .... وامتدت آمالها فى غده .. عالما ... أو طبيبا .... أو مهندسا .

... وحينذاك لا تجد الأسرة الا هدى رسولها صلى الله عليه وسلم .... وصبره على ولده قدوة لها ... وحديثه الشريف تصطبر به ... كلما حاول الشيطان أن يكيد ويمكر ... ويعيث فى القلب فسادا .

... لقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بالصبر اذا ابتلاهم ربهم فى أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم وقال: « من يتصبر يصبره الله .... وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر .. »[٢٢] .

وحتى يكون هذا الصبر عن بينة لما ادخره الله له .. بين للعبد الصابر جزاء صبره وقال :

« اذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته : قبضتم ولد عبدى ؟ ... فيقولون : نعم .... فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ ... فيقولون : نعم . فيقول : فماذا قال عبدى ؟ .... فيقولون : حمدك واسترجع .. فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد »[٢٣] .

---

(٢٢) متفق عليه .　　(٢٣) رواه الترمذى .

ثم يبين صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر أن فى البلاء تكفيرا للذنوب ، وأن العبد لا يزال فى بلاء حتى يلقى ربه بلا خطيئة ... بعد أن طهره الله من ذنوبه بما ابتلاه به فى دنياه .

... وفى هـذا المقام قال صلى الله عليه وسلم :

« ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة »(٣٤) .

وحتى يتذرع العبد المسلم بالصبر ويتقى به همزات الشيطان يحدثه الرسول صلى الله عليه وسلم ان الله لا يبتلى الا من أحبه .

... وحب الله غاية العبد المسلم ، فان أنعم الله بحبه جزاء صبره فمن أطاعه فى الدنيا من الله عليه بها !! ثم استردها ... فأنعم به من بلاء !!! ما دام رسول الله صلى الله عليه وسلم يبشره بهذا الفوز العظيم فى الحديث الشريف الذى قال فيه :

« ان عظم الجزاء مع عظم البلاء . وان الله تعالى اذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط »(٢٥)

ويوم يدرك العبد المسلم أنه باشتداد بلائه يزداد قربا من ربه ... تهون عليه الدنيا .... بل تهون عليه نفسه التى بين جنبيه يقدمها فداء بين يديه حتى تتحقق له هذه المرتبة السامية

---

(٢٤) رواه الترمذى .

(٢٥) رواه الترمذى وابن ماجة .

من الرضا والرضوان كما بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وقال :

« أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل »(٣٦) .

رحمة الله للعالمين واليتيم :

ان هذه الرحمة الربانية التى وسعت الأبوين اذا فقدا أحد الأبناء بعد أن كان يملأ الدار بهجة ... والقلب أنسا ... والنفس راحة لم تدع الصغير نهبا لغائلة الزمان اذا فقد أحد أبويه أو كلاهما ... بل أوصى بكفالته وبشر كافله بالجنه وقال : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وأشار بالمسبابة والوسطى وفرج بينهما »(٢٧) .

وحسب اليتيم رحمة أن يكون أكرم الخلق منزلة عند الله يتيما ... وما زاده يتمه الا اقبالا على ربه ، فآواه وهداه ، وأوصاه باليتيم يشفق عليه ويرعاه ... قال تعالى : ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث ﴾(٣٨) .

رحمة الله للعالمين والوالدين :

ان رحمته صلى الله عليه وسلم بالصغير حتى يقوى ويستوى عوده لم تكن لتدع الكبير ساعة ضعفه ومرضه

---

(٢٦) رواه ابن ماجه والترمذى .

(٢٧) رواه البخارى .

(٢٨) الضحى : ٦ — ١١

وحاجته الى من يأخذ بيده ..... فهو أولى بالرحمة وأحق بها .

... لذا قرن رسول الله صلى الله عليه وسلم عقوق الوالدين بالشرك بالله .... والشرك ظلم للنفس كبير .

... والذنوب مهما عظمت يغفرها الله ان شاء الا الشرك كما قال فى كتابه الكريم ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[٢٩] .

واقتران عقوق الوالدين بالشرك بالله دليل على أنه جرم عظيم .... وكبيرة لا يرضاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأتباعه المسلمين .

... بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف رواه سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقال ... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر .... قلنا : بلى يا رسول الله .. قال : الاشراك بالله ... وعقوق الوالدين .. وكان متكئا فجلس فقال : « ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت »[٣٠] .

---

(٢٩) سورة النساء : ١١٦

(٣٠) رواه البخارى ومسلم .

وكما قرن رسول الله صلى الله عليه وسلم عقوق الوالدين بالشرك بالله ... قرنت آيات الله البينات الاحسان الى الوالدين بعبادة الله وحده فقال الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ﴾[٣١] .

وفى كل مقام يقتضى توجيه المسلمين الى بر الوالدين تتجلى رحمته صلى الله عليه وسلم بهما حتى وانه أوصى من ترك والديه يبكيان وجاء يبايعه على الهجرة أن يعود اليهما ويحسن اليهما .

... عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال ... جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : جئت لابايعك على الهجرة وتركت أبواى يبكيان .. فقال : « ارجع اليهما فأضحكهما كما أبكيتهما »[٣٢] .

ثم يبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بر الوالدين قد يفضل الجهاد فى سبيل الله ان دعا الأمر ذلك .

---

(٣١) الاسراء : ٢٣

(٣٢) رواه ابو داود .

... عن عبد الله بن عمرو بن العـاص رضى الله عنهما قال ... جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فاستأذنه فى الجهاد ... فقال : أحى والداك ؟ ... قال : نعم ... قال : ففيهما فجاهد[٣٣] .

ورأى الصحابة رضوان الله عليهم أحاديث رسـول الله صلى الله عليه وسلم ماثلة أمام أعينهم ، فأيقنوا أن عقـوق الوالدين يأخذ بيد العاق الى النار ... وأن رضاهما وشفاعتهما فيه الرضا .. والمغفرة .. والرحمة من الله .

روى الطبرانى وأحمد عن عبـد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه قال : كنـا عند النبى صلى الله عليه وسلم فأتاه آت فقال : شـاب يجود بنفسـه ... فقيل له : قل لا اله الا الله فلم يستطع ... فقال صلى الله عليه وسلم : كان يصلى ؟ ... فقال : نعم ... فنهض رسـول الله صلى الله عليه وسلم .. ونهضنا معه ... فدخل على الشاب فقال : قل لا اله الا الله ... فقال : لا أستطيع ... قال : لم ؟ ... قالوا : كان يعق والدته .. فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أحيـة أمه ؟ ... قالوا : نعم ... قال : ادعوها .. فدعوها .. فجاءت .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا ابنك ؟ .. قالت : نعم ، فقـال لهـا : أرأيت لو أججت نارا ضخمة فقيل لك : ان شفعت له

---

(٣٣) متفق عليـه .

خلينا عنه ••• والا حرقناه بهذه النار ••• أكنت تشفعين له ؟ ••• قالت : يا رسول الله •• اذن أشفع ••• قال : فأشهدى الله وأشهدينى أنك قد رضيتى عنه •• قالت : اللهم انى أشهدك ••• وأشهد رسولك انى قد رضيت عن ابنى ••• فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا غلام ••• قل لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد أن محمدا عبده ورسوله فقالها •••• فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى أنقذه من النار •••(٣٤) •

وبر الوالدين دائم ومتصل ••• والصلة بهما بعد لحاقهما بالرفيق الأعلى لها سبل عديدة بينتها الأحاديث الشريفة •

••• وكما أن اكرامهما فى حياتهما رحمة من الله ••• ونعيم مقيم •••

كذلك اكرامهما بعد لحاقهما بالرفيق الأعلى ••• رضا من الله وفوز كبير ••

••• عن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه قال :

---

(٣٤) رواه الطبرانى •

« بينا نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله ... هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ ... فقال : نعم ... الصلاة عليهما .. والاستغفار لهما ... وانفاذ عهدهما من بعدهما ... وصلة الرحم التى لا تصل الا بهما ... واكرام صديقهما »(٣٥) .

وبفضل الله وكرمه ورحمته بعباده يصل هذا البر الى الوالدين وهما بجوار ربهما ... ويرفع الله بدعاء ولدهما درجاتهما فى الجنة ، كما أخبرنا بهذه المنة وهذا الاحسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ان الله يرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة ... فيقول يا رب أنى لى هذا ؟ ... فيقول : باستغفار ولدك(٣٦) .

رحمة الله للعالمين والموالى والخدم :

أما رحمته صلى الله عليه وسلم بالموالى والخدم فحسبنا دليلا على معاملته السامية ما ذكره أنس بن مالك رضى الله عنه ، والذى خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل له عن شيء فعله لم فعلته ؟ ... وعن شيء لم يفعله : لم لم تفعله ؟ ...

(٣٥) رواه ابو داود ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم .
(٣٦) رواه أحمد .

كان صلى الله عليه وسلم رفيقا بخدمه ••• وكان يوصى أتباعه بالرفق •••• ويدعو السيد أن يعامل خادمه بأخوة الاسلام ••• يطعمه مما يطعم •• ويلبسه مما يلبس •• ولا يحمله ما لا يطيق •••

••• عن المعرور بن سويد قال : « ••• رأيت أبا ذر رضى الله عنه وعليه حلة وعلى غلامه مثلها ••• فسألته عن ذلك •• فذكر أنه ساب رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بأمه •••• فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

انك امرؤ فيك جاهلية ••• هم اخوانكم وخولكم ••• جعلهم الله تحت أيديكم ••• فمن كان أخوه تحت يده ••• فليطعمه مما يأكل •• وليلبسه مما يلبس •• ولا تكلفوهم ما يغلبهم ••• فان كلفتموهم فأعينوهم ••• »[٣٧] .

أما الرقيق فقد جنوا ثمار رفقه بهم ••• واطمأنوا الى عدالة السماء لما شعروا بتكريم الاسلام اياهم ••• هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو المالك أن لا يرفع على العبد سوطا ، ويذكره بأن قدرته على مالكه محدودة ••• وقدرة الله عليه لا حدود لها ••

---

(٣٧) متفق عليه .

عن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه قال : كنت أضرب غلاما لى بالسوط ، فسمعت صوتا من خلفى : « اعلم أبا مسعود » فلم أفهم الصوت من الغضب ، فلما دنا منى اذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا هو يقول : « اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام » . فقلت : لا أضرب مملوكا بعده أبدا(٣٨) .

ان هذه الوصية الرحيمة كانت عن مملوك أتى حدا ، أما ذلك الذى لم يأت حدا واعتدى عليه مالكه ظلما وعدوانا .. فكفارة عدوانه أن يعتقه كما بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

« من ضرب غلاما له حدا لم يأته أو لطمه فان كفارته أن يعتقه »(٣٩) .

أما الاماء فكن أولى بالرحمة من العبيد ، لأنهن ضعيفات بطبعهن ، وأمرهن فى يد مالك رقابهن ، والرسول صلى الله عليه وسلم انما بعثه الله رحمة للعالمين ، للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان .

لذلك أوصى بالاحسان اليهن ، وتعليمهن ، وتأديبهن ، وبشر المالك بضعفين من الأجر ان فعل بأمته ما أوصاه به فى حديثه ، ثم تزوجها وقال :

---

(٣٨) رواه مسلم .

(٣٩) رواه مسلم .

« ثلاثة لهم أجران • رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ، وآمن بمحمد • والعبد المملوك اذا رأى حق الله وحق مواليه • ورجل كانت له أمة فأدبها ، فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها • ثم أعتقها فتزوجها ، فله أجران »[٤٠] •

وكانت رحمته تجسيما لنظرة الاسلام للرق الذى ضيق أسبابه ، وفتح أبواب العتق على مصراعيها • وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يكاد يضع أيدينا على هذه الحقيقة حيث قال :

« لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » •

ولقد أظلت رحمته صلى الله عليه وسلم الأسرة لما أوصاها بصلة الرحم وقال :

« الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله »[٤١] •

ان الذى يصل رحمه يصل معانى الخير ، وفضائل الأعمال ، ومكارم الأخلاق •

---

(٤٠) متفق عليه •
(٤١) رواه البخارى ومسلم •

فهو فى صلته لرحمه يبر والديه كما بين له ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، .. يبرهما وهما فى جوار ربهما بصلته لذوى الرحم التى لا توصل الا بهما .

وهو فى صلته برحمه يهتدى بمبادىء الاسلام السامية التى جعلت المؤمن مع أخيه المؤمن أعضاء فى جسد واحد .

وهو فى صلته برحمه يدعم بناء الأمة الاسلامية التى تحمل مشاعل النور تهدى بها الناس الى صراط الله المستقيم .

وهو فى صلته برحمه يشارك أهله فى السراء والضراء ويجود عليهم بما يمن الله عليه من فضل .

وواصل الرحم ينعم بما من الله عليه من فضل فى الآخرة والأولى ، ويهنأ بالبركة تعم داره وعمره ورزقه كما بشره بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

« من أحب أن يبسط له فى رزقه ، وينسأ له فى أثره ، فليصل رحمه »(٤٢) .

ولأن النفس البشرية لا تقبل على العمل الا ان وجدت مرتعا خصبا .

---

(٤٢) متفق عليه .

وحتى يقبل المسلم على صلته برحمه دون أن يأبه لنفس مريضة تنكر عمله الصالح .

وكى لا تشعر النفس بأسى ان قاطعه أهله وهو يصلهم ، وأساءوا اليه وهو يحسن اليهم ، أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن نمضى فى صلتنا بالرحم وان جار علينا الأهل .

... عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال : « يا رسول الله انى لى قرابة أصلهم ويقطعونى ، وأحسن اليهم ويسيئون الى وأحلم عنهم ويجهلون على .

فقال : لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل[٤٣] ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك »[٤٤] .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة لأتباعه ، يقتدون به فى صلته لرحمه ... فقد وصلهم فى حياتهم .. ولم يقطع صلته بهم بعد مماتهم ... ولا أدل على ذلك من ذكره خديجة رضى الله عنها بعد موتها ، حتى وانه كان يذبح الشاة ويبعث منها الى أصدقاء خديجة رضى الله عنها كما تروى ذلك عائشة رضى الله عنها .

---

(٤٣) الرماد الحار .

(٤٤) رواه مسلم .

ولم تقتصر صلته صلى الله عليه وسلم على من حوله من أقربائه بل امتدت صلته بهم فى أعماق الزمان حتى انه أوصى بذوى رحمه من أهل مصر وقال :

« ... ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط[٤٥] فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما » .

رحمة الله للعالمين والجار :

وتسع رحمته صلى الله عليه وسلم الجار كما وسعت ذوى الرحم ... فيدعو الأسرة أن تحفظ حق الجار فى صحته ومرضه، وفى قوته وضعفه ، وفى غناه وفقره ، وأن تحرص على معاونته وتتجنب أذاه ، وأن تحفظه فى زوجه وماله وولده ، وأن لا تؤذيه فى مشاعره ، لأن الجار أقرب الناس اليه فى السراء والضراء ... يبذل لدفع الضر عنه ما يملكه من جهد .

... لذا أنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان عمن يؤذى جاره ، وقال : « والله لا يؤمن ... والله لا يؤمن .. قيل : من يا رسول الله ؟ .. قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه »[٤٦] .

---

(٤٥) جزء من الدينار والدرهم كان يتعامل به أهل مصر .
(٤٦) متفق عليه .

فالايمان بالله أمن وأمان ... ومعاملة كريمة للناس تعكس أمن النفس وطمأنينة القلب .

... ومن يؤذ جاره فقد لفظ الايمان من قلبه .

وحتى تأتلف الأرواح ، وتتآلف النفوس أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم العبد المسلم بأن يتعهد جاره ، ويطعمه بما من الله عليه من فضل ، وأوصى أبا ذر الغفارى رضى الله بذلك وقال : « يا أبا ذر اذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك »[(٤٧)] .

ذلك لأن للجار منزلة ومكانة عند الأسرة التى يجاورها ، وله حقوق لا تقل عن حقوق أفرادها ، كما بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

« ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[(٤٨)] .

حقا يا رسول الله .. ان للجار مكانة ومنزلة عند جاره ، وله حقا بينته فى حديثك الشريف حتى كاد أن يرث مع أفراد الأسرة .

---

(٤٧) رواه مسلم . (٤٨) متفق عليه .

حقا يا رسول الله .. فان أخوة الدين ارتقت أو كادت أن ترتقى الى أخوة النسب فيما شرعه الله من حقوق .

حقا يا رسول الله . فبما رحمة من الله الرحمن الرحيم رحمت الأسرة زوجا وزوجة ، فتآخت بنين وبنات ، وتلاحمت موالى وخدما ، وتعاونت رحما وجارا ، فكانت بمنة الله خير أسرة فى خير أمة .

* * *

قال تعالى :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكـم آياته لعلكم تهتدون » .

سورة آل عمران (آية : ١٠٣)

رحمـة الله للعالمين والعرب :

توافرت للعرب بعد الاسلام كل مقومات الأمة المتحضرة ، فانطلقت ترتاد شتى مجالات العلوم والمعرفة ، وتنهل من منابع النور والحكمة ، وتسهم فى اعلاء شـأن الانسـان من منطلق العبودية لله وحده ، بعد أن تحررت من كل قيد يعوق انطلاقها الى دنيا المثل العليا ، والقيم النبيلة ، والأخلاق السامية ، والتعاون المثمر الذى جاءت به مبادىء الاسلام السامية •

وتحقق هذا التحول المعجز بفضل رسالة السماء ، وجهاد نبى الرحمة صلى الله عليه وسلم • بعد أن رأت العرب الرحمة الربانية فى نبيها قولا ، وفعلا ، وسلوكا ، ومعاملة ، وخلقـا ، ظاهرا ، وباطنا •

رأتها العرب فاقتدت به واهتدت وصـارت بفضل ربهـا نورا يشرق فى الآفاق بعد أن كانت نارا تحرق الأصدقاء والأعداء•

ووسعت أخلاقه صلى الله عليه وسلم الشتات من القبائل، والأجناس ، والفئات الاجتماعية المتفاوتة ، فصارت بنعمة الله مجتمعا متجانسا ، بينت آيات الله تآلفة الروحى، وتعاطفه الانسانى فى قوله تعالى :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾(١) .

ورأت العرب سمو نبيهم الوجدانى ، وسموه الروحانى فى تواضعه الذى عبر عنه أنس بن مالك رضى الله عنه وقال : « ... أن كانت الأمة من اماء المدينة لتأخذ بيد النبى صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت »(٢) .

... ثم أراهم الرحمة وهو يهدى النفوس الى العبادة التى يرضاها ربنا ... فأبى عليها أن تتبع سنن من قبلهم ... فيقدسونه كما قدسوا أنبياءهم ... وينتهون الى حيث انتهوا فيعبدونه من دون الله ...

لذا كان يحذرهم من القيام له تعظيما ويقول : « ... لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا ... » ...(٣) .

وكان يدعوهم الى معاملته كبشر أوحى اليه برسالته ... ويوصيهم بأن ينزلوه حيث أنزله الله ...

---

(١) آل عمران : ١٠٣ . (٢) رواه البخارى .
(٣) أخرجه أبو داوود .

عن أنس رضى الله عنه قال : أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ياخيرنا وابن خيرنا ••• وسيدنا وابن سيدنا •• فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « قولوا ما أقول لكم ••• ولا يستهوينكم الشيطان •• أنزلونى حيث أنزلنى الله ••• أنا عبد الله ورسوله ••• »(٤) •

وكان يحذرهم من اتخاذ قبره مسجدا يعبدون فيه ربهم كما فعلت اليهود والنصارى من قبل •••• حتى لا يتسلل الشرك الى نفوسهم ويوردهم موارد الهلاك كما فعل بسابقيهم •

واطمأنت قلوبهم ، وهدأت نفوسهم ، وأيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبغ بما يدعوهم اليه جاها ولا سلطانا وحسبهم أحاديثه التى دعتهم الى عبادة الله وحده حيث قال : ﴿لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد فلا تفعلوا وكررها ثلاثا﴾(٥) •

وحتى يقطع على الشيطان سبيله قال صلى الله عليه وسلم: « لا تتخذوا قبرى عيدا وصلوا على حيثما كنتم ، فان صلاتكم تبلغنى » •

وبهذا الحديث الشريف أغلق أبواب الغواية ، وسد عليه

---

(٤) أخرجه أحمد عن أنس •   (٥) رواه مسلم •

سبل الضلال حتى لا يتخذ أتباعه قبره مسجدا بحجة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب .

مجتمع الحب فى الله :

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجتمعا متحابا فى الله بعد أن اقتلع من النفوس همسات الحقد ، ونزغات البغض ووساوس الكراهية ، وبعد أن ألف القلوب وهداها الى خالقها ، فانشغلت بحمده ، وتسبيحه ، والثناء عليه ، وتمجيده ، وبعد أن شفى النفوس من أمراضها التى مزقتها من قبل اربا ، كما صور ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف وقال :

« دب اليكم داء الأمم قبلكم البغضاء والحسد ، والبغضاء هى الحالقة ، ليس حالقة الشعر ، ولكن حالقة الدين ، والذى نفسى بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أبنئكم بما يثبت ذلك افشوا السلام بينكم »[٦] .

وقد قرن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الشريف الايمان بأسمى عاطفة لينالوا به أنبل غاية يوم اللقاء ...

---

(٦) رواه البزار .

هذه الغاية التى يجاهد العبد المؤمن لهـا نفسه . ويقوم للفوز بها ليله ... ويصوم لهـا نهاره ...

هذه الغاية ... طريقها الايمان .... والايمان طريقه الحب فى الله .. كما بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه الشريفة والتى ربط بها قلوب أصحابه رضوان الله عليهم.. برباط الحب ... وبين لهم فيها مقام المتحابين عند ربهم ... ومدى ماينعمون به من أمن وأمان يوم لقائه وقال : « ان من عباد الله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء .. قيل : من هم لعلنا نحبهم ... قال : هم قوم تحابوا بنور الله فى غير أرحام ... ولا أنساب ... وجوههم نور .. على منابر من نور .... لا يخافون اذا خاف الناس ... ولا يحزنون اذا حزن الناس ... ثم قرأ : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[7] .

وكيف يحزن المتحابون فى الله وقد رضى الله عنهم ورضوا عنه ...

وكيف يخافون وقد خافوا ربهم فى دنياهم فأمنهم فى أخراهم ....

وكيف يفزعون وقد أثمر خوفهم من ربهم الأمن فى أنفسهم فتحابوا ... فأظلهم الله بظله يوم لا ظل الا ظله ...

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال .. قال رسول الله صلى

---

(٧) رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه واللفظ له .

الله عليه وسلم : « ان الله تعالى يقول يوم القيامة ... أين المتحابون بجلالى ؟ ... اليوم أظلهم بظلى يوم لا ظل الا ظلى »[٨]

... لقد أظلهم ربهم بظله يوم لقائه ، لأنهم أحبوا بعضهم بعضا فى الله ... ومن أحبه مولاه تولاه .. وأنعم عليه برضاه ... وجعل الجنة منقلبة ومثواه ....

السلام سمة المتحابين فى الله :

ان المجتمع العربى المسلم الذى تفيأ فى ظل رحمة الله للعالمين وانطلق يعلى كلمة الله فى مشارق الأرض ومغاربها انما استقى قيمه الاجتماعية .. ومثله العليا من نبع الحب فى الله كما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فكان التعاون والتكافل الاجتماعى والمعاملة الانسانية والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ....

كان هذا كله وغيره من معانى الخير والبر والتقوى يفيض من هذا النبع الملائكى الطاهر .. نبع الحب والمودة والألفة ...

لكن كيف تحاب الصحابة رضوان الله عليهم فى الله ... وما السبيل الى هذا الفيض الربانى الذى به تحقق ما يشبه المعجزات فى فترة قصيرة من الزمان ؟!

تحاب الصحابة رضوان الله عليهم فى الله لما أحبوا الله ورسوله وآثروهما على أنفسهم وأموالهم ... واقتدوا هذا

---

(٨) رواه مسلم .

الحب بأرواحهم . هاجروا وقاتلوا واستشهدوا فى سبيل اعلاء كلمة الله وهدى رسوله ...

ومن هـذا المنطلق تآلفت الأرواح ... وائتلفت القلوب واطمأنت النفوس ... وصارت الجماعة وكأنها نفس واحـدة تتردد فى أجساد متعددة ...

ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأيديهم الى الحب فى الله .. والذى بـه يتحقق الايمان .. وقال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ... ألا أدلكم على شىء اذا فعلتموه تحاببتم .. افشوا السلام بينكم »(٩) .

فالسلام يوحى بالأمن والأمان .. وينطلق من نفس آمنة مطمئنة بحب الله وبحب رسوله ... وينعكس تآلفا مودة وبرا وتعاونا فى علاقات الناس ...

والسلام اسم من أسماء الله وضعه على الأرض .. ومن أفشاه ذكر الناس باسم من أسمائه .. وكان له عليهم هـذا الفضل ... كما أخبرنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه على الأرض فأفشوه بينكم ... فان الرجل اذا مر بقوم فسلم عليهم ... فردوا عليه كان له عليهم فضل درجة بتذكيره اياهم السـلام فان لم يردوا عليه رد من هو خير منهم »(١٠) .

---

(٩) رواه مسلم .

(١٠) رواه البزار والطبرانى .

والسلام تحية الملائكة لأهل السلام .. تزفهم به الى دار السلام ... تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾[11] .

وبالسلام يتطهر العبد المؤمن من ذنوبه وتتناثر خطاياه كما يتناثر ورق الشجر ، كما حدثنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « ان المؤمن اذا لقى المؤمن فسلم عليه وأخذ بيده فصافحه تناثرت خطاياهما كما يتناثر ورق الشجر »[12] .

وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتباعه بافشاء السلام فى كل لحظة وحين ، فامتثلوا لهذا الأمر حتى صار السلام سمة من سمات العبد المؤمن ، ولازمة لا تفارقه ، وعنصر من عناصر شخصيته ... ان أغفلها أغفل سنة من سنن الرسول صلى الله عليه وسلم وهديا من هديه .

لذلك التزم الصحابة رضوان الله عليهم بأحاديثه التى دعاهم بها حيث قال :

« اذا لقى أحدكم أخاه فليسلم عليه ، فان حالت بينهما شجرة ، أو جدار ، أو حجر ، ثم لقيه فليسلم عليه »[13] .

وافشاء السلام يعنى فى المقام الأول السلام النفسى الذى يعبر عنه المسلم بكلمات التحية التى أمرنا الله ورسوله بها .

---

(١١) الزمر : ٧٣ .
(١٢) رواه الطبرانى .
(١٣) رواه أبوداوود .

لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقى كل وهم باطل يعكر صفو السلام النفسي ولو حتى بظن قد يدع للشيطان سبيلا يوغر به النفوس ...

وقد روت أم المؤمنين صفية بنت حيى رضى الله عنها ما يبين ذلك وقالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم معتكفا فى المسجد فأتيته أزوره ليلا ، فحدثته ، ثم عدت لأنقلب ، فقام معى ليقلبنى ، — وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد — فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرعا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « على رسلكما ، انها صفية بنت حيى .. فقالا : سبحان الله يا رسول الله » . فقال : « ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم وانى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا أو قال شيئا »(١٤) .

ان العبد المسلم يعيش بين اخوانه وسلامه النفسى يسرى الى مشاعرهم أمنا وأمانا ، ومودة وحنانا .

ولقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدهم الى هذا السمو النفسى ، ودعاهم أن يحرصوا كل الحرص على مشاعر بعضهم البعض .

وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر حديثه الشريف الذى حذر فيه اثنين يتناجيان دون ثالث يجلس معهما ودعاهما ألا يفعلا ذلك حتى لا يظن الثالث ظن السوء ، وحتى لا تحدثه نفسه بأن نجواهما

---

(١٤) متفق عليه .

كانت عليه ، فيحمل فى نفسه ، ويبتعد عن أخيه دون ذنب جناه ، ويتفرقا بهذا الحاجز النفسى الذى نهانا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « اذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس ، فان ذلك يحزنه »(١٥) •

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ألف برحمته القلوب ، ما كان له أن يدع سبيلا للنفس الأمارة بالسوء أن توغر الصدور •

حقا ما كان له أن يفعل ذلك ورسالته السمحاء تدعو الى الألفة والتزام الجماعة ، ووصاياه كلها تمهد للمسلمين سبل الحياة المتحابة المتعاونة ، حتى وانه كان يمنع آكل الثوم أو البصل من الصلاة مع جماعة المسلمين ، حتى لا تتسلل الجفوة اليهم ويقول : « من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا »(١٦) •

وجدير بمن رباه رسول الرحمة على هذا المستوى الراقى من السمو الوجدانى ، والصفاء النفسى أن تسمو مشاعره ، وأقواله ، وأفعاله ، فلا يقول الا حقا ، ولا يعمل الا خيرا •

آثار الحب فى الله :

واهتدى الصحابة رضوان الله عليهم بهدى نبيهم ، فتحابوا فى الله ، وتآلت القلوب بأسمى عاطفة ، وأثمرت هذه العاطفة النبيلة تعاونا ، وعملا صالحا ، وقولا لينا •

---

(١٥) متفق عليه ، ورواه أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه •

(١٦) متفق عليه •

وصـــار الصحابة يحزنون لمـــا يصيب أحـــدهم من ضر ، ويفزعون من البلاء نزل بساحة أحدهم ، فلا يطيب لهم عيش ، ولا يهنأ لهم بال ، ولا يهدأ خاطر ما دام أخ لهم في هم ، أو غم ، أو نصب ، أو ضائقة تعكر صفو حياته .

وذلك لأن رحمة الله للعالمين بمشاعره ، وبأقواله ، وبأفعاله ، وبصدقه ، ونقاء سريرته ، ووصاياه ، وأحاديثه ، صهر هـــذه النفوس في بوتقة الايمان ، فصارت وكأنها نفس واحدة ، وألف الأرواح الشاردة حتى صارت روحا تتردد في أجساد عديدة ، ووحد الوسيلة ، والغاية ... فصارت الأفكار متسقة بناءة ، والقدرات متكاملة خلاقة مبدعة .

وصار القوى يدخر قوته ليسد بها ضعف أخيه ، وأصبح مال الغنى سندا لحاجة الفقير ، وباتت شجاعة الفارس ومهارته درعا تقى المستضعفين في الأرض ، فأصبحوا بفضل رحمة الله للعالمين صرحا شاهقا يكمل بعضهم بعضا ، وتحقق فيهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « مثل المسلمين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منـــه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »(١٧) .

لقد رباهم رحمة الله للعـــالمين على الحب ، وعلمهم أن الايمان يعنى النية الصادقة ، الخالصة لوجه الله ، والمخلصـــة لاخوانها ، وأرشدهم بأن الايمان بالرحمن ، الرحيم ، الكريم ،

---

(١٧) متفق عليه .

الودود يعنى الرحمة والمودة لكل مسلم ، وأن من لم يفعل ذلك نقص ايماته ، وحاد عن هدى نبيه الذى جعل الايمان مشاركة بالمشاعر ، والأقوال ، والأموال ، وبذل ما يملكه العبد المسلم من قدرات فى سبيل أخيه ان دعاه الأمر لذلك .

ولقد صور رسول الله صلى الله عليه وسلم كمال الايمان فى الحديث الشريف وقال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »(١٨) .

والحب فى الله الذى يكتمل به ايمان المؤمن يتمثل فى كماله الانسانى . فايمانه بالله وباليوم الآخر يعنى كفه أذاه عن جاره، واكرامه لضيفه ، وكفه لسانه عن الشر كما حدثنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت »(١٩) .

والسلام النفسى الذى تعهده رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى أمن الانسان وأمانه حيث كان .

والمسلم أولى الناس بهذا الأمن ، وهذا الأمان .

وما كان للأمن أن يظل أمة الاسلام لولا أن النفوس قد تخلصت من نقائصها فلا تضمر شرا ، والا لأن الألسنة قد تطهرت من الفحش والبذاءة فلا تنطق الا خيرا ، ولأن الجوارح قد أسلمت لربها فلا تمتد الا تعاونا وبرا .

---

(١٨) متفق عليه .

(١٩) متفق عليه .

فالمسلم قد أسلم كيانه كله لربه ، كما هداه اليه رسوله صلى الله عليه وسلم وقال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »[٢٠] .

ولا يعنى اسلام الانسان لربه الاكتفاء بكف الأذى عن أخيه المسلم ، بل يعنى الاسراع اليه ان ألمت به ملمة ، ومشاركته مشاعره ان أصابته حسنة .

وهو فيما يفعل انما يبتغى أجره من ربه ، لأن من استعان لم يستعن الا بمولاه ، وكلاهما (المعين والمستعين) يستشرفان الثواب والرحمة من رب العالمين .

ولو تدبرنا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلمنا أن المسلمين ــ من أعطى ومن أخذ ــ لا يقصدون الا ربهم ، فالمعطى يعطى لله ، والمستعين والمستجير والسائل انما يستجير ويستعين ويسأل ربه كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سألكم بالله فأعطوه ، ومن استجار بالله فأجيروه ، ومن أتى اليكم معروفا فكافئوه ، فان لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه »[٢١] .

والعبد المسلم يلتزم بما أوصاه به رسوله صلى الله عليه وسلم نحو أخيه .

وهو فى التزامه لا يفرق بين جنس وجنس ، ولون ولون ، وسيد ومسود ، وغنى وفقير .

---

(٢٠) متفق عليه .
(٢١) رواه أبو داوود والنسائى واللفظ له .

ان التزامه تضامن روحى ينتظم الأمــة الاســلامية أينما كانت ، وحيثما كانت ، حتى يفيض على أمة الاسلام هذا النبع الطاهر ، ويزداد به المسلمون ألفة ومودة وتراحما وتعاونا ، وهم يقومون بأداء ما عليهم من حقوق حدثهم بها رسولهم صلى الله عليه وسلم وقال : « حق المسلم على المسلم خمس .. رد السلام .. وعيادة المريض ... واتباع الجنائز .. واجابة الدعوة .. وتشميت العاطس »[٢٢] .

والحب فى الله ينعكس على معاملة المحب لله لأخيه وتبدو آثاره فى أقواله ... وفى أفعاله .. يشارك أخاه فى سرائه ... وفى ضرائه .. وفى يسره .. وفى عسره ..

فالمحب صادق الوعد ... وفى العهد ... عف اللســان ... رقيق القلب .....

وحبه لأخيـــه يؤتى أكله باذن ربه تعــاونا وتآلفا وبرا ورحمة ...

أما من يفعل غير ذلك فقد أفقر قلبه من الحب ... وخرج بسوء فعاله من جماعة المؤمنين

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب لنا المثل وهو يحاور رجلا يبيع طعاما ... فأعجبه وأدخل يده فرأى بللا فقال: ما هذا يا صاحب الطعام ؟ ...

قال : أصابته السماء ...

---

(٢٢) رواه البخارى ومسلم .

فقال : « فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ..
من غشنا فليس منا [٢٣] .

ولعلنا لو تدبرنا فى قوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون .
الذى هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون .
والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . الا
على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى
وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم
راعون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون
الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[٢٤] لعلمنا أن
الايمان بالله لا يكتمل بنيانه باقامة الصلاة وايتاء
الزكاة ان لم تنه شعائر الدين وأركانه المؤمن عن اللغو
والزنا ، وتلزمه بأداء الأمانة والوفاء بالعهد وان لم يقوم الايمان
سلوكه فى المجتمع ، وان لم يعبر بمعاملته للناس عن ايمانه بالله
وبرسوله واليوم الآخر ...

مجتمع البر والتقوى :

وحتى تصفو النفس من الهوى ، وتسموا الى أعلى درجات
الكمال الانسانى أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتقوى،
وبين لنا مغزاها ، وعددت لنا آيات الله البينات صفات
المتقين وجزاءهم فى دنياهم وأخراهم .

لذا اكتملت لأمة الاسلام مقومات الرقى النفسى فسادوا من

---

(٢٣) رواه مسلم . (٢٤) المؤمنون : ١ — ١١ .

حولهم من الأمم ... وما تحقق للمسلمين ذلك الا لأنهم اقتدوا بسيد المتقين الذى هداهم الى تقوى الله فى كل قول وعمل ، وكل غاية وهدف ، فكان بحق مجتمع البر والتقوى .

كانت التقوى منطلق حياتهم ، ومعقد آمالهم . وكانوا يتقون ربهم فى معاملاتهم ، وفى أعمالهم ، وفى عباداتهم .

وقد بينت لهم آيات الله الوسيلة لتحقيق هذه الغاية السامية ، وبشرتهم بالجزاء الذى ينتظر المتقين يوم لقاء ربهم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصيهم بالتقوى ، ويريهم فى نفسه التقوى سلوكا ، ومعاملة ، وقولا ، وفعلا ، وعبادة ، واخلاصا ، وصدقا .

واجتنب المسلمون ما حرمه عليهم ربهم ، والتزموا بما فرضه عليهم ، وراقبوه فى السر والعلن ، وكانوا لا يرون فى أنفسهم أحدا سواه ، ويتوقون الى لقائه ، كما وصفهم على بن أبى طالب « كرم الله وجهه » وقال : « نزلت أنفسهم فى البلاء ، كما نزلت فى الرخاء ، لولا الأجل الذى كتب الله لهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقا الى ربهم ، عظم الخالق فى أنفسهم ، فصغر ما دونه فى أعينهم » .

ولعل خير دليل لشديد شوقهم الى لقاء ربهم انما هى آيات الله تصور لنا حال العاجزين عن الغزو لضيق يدهم ، وهم يعودون الى ديارهم وأعينهم تفيض من الدمع ألا يجدوا ما لا ينفقون .

لقد اتقت العرب بعد اسلامها ربها ، وعظم مقامه فى أنفسهم ، حتى وأن الصحابة رضوان الله عليهم ، كانت ترتعد فرائضهم اذا قرءوا أو سمعوا آيات العذاب ..

ولعل ما فعله سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ... ـ وهو أحد المبشرين بالجنة ـ لعل ما فعله دليلا على تقوى المجتمع العربى بعد اسلامه

... لقد كان يقرأ يوما ما فى كتاب الله قوله تعالى : « اذا الشمس كورت » ... حتى اذا بلغ قوله « واذا الصحف نشرت » ... خر مغشيا عليه ..

... ولقد هام سلمان الفارسى على وجهه ثلاثة أيام .. هلعا وخوفا من يوم الحساب ، لما نزل قوله تعاله : « وان جهنم لموعدهم أجمعين » .

وكانوا مع شديد تقواهم ... يظنون بأنفسهم الظنون ... ويستقلون ما يعملون .. وكأنما كان يعنيهم على ابن أبى طالب رضى الله عنه ويقول :

« لا لا يرضون من أعمالهم بالقليل ... ولا يستكثرون الكثير ... فهم لأنفسهم متهمون ... ومن أعمالهم مشفقون .. اذا زكى أحدهم خاف مما يقال له فيقول :

« أنا أعلم بنفسى من غيرى . . وربى أعلم بنفسى منى ... اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون ... واجعلنى أفضل مما يظنون .. واغفر لى ما لا يعلمون » .

ولو تدبرنا آيات الله لعلمنا أن الشهادة كانت أعــذب مناهم ، فى متقلبهم ومثواهم .

قال تعالى : ﴿ ليس على الضعفاء ، ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا الله ورسـوله ما على المحسنين من سـبيل والله غفور رحيم ولا على الذين اذا مــا أتوك لتحملهم قلت لا أجــد مــا أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ﴾[٢٥] .

ورأى صحابة رسـول الله صلى الله عليه وسـلم بكتاب الله أخراهم ، فالتزموا به فى دنياهم .

ذلك أنهم وهو يتلون آيات الله تصف الجنة كانوا يكادون يشمون ريحها ، ويرون قصورها ، وأنهارهـا ، وولدانهـا ، وحورها ، وكانوا يكادون يرون النـار وهم يتلون آيات الله تصور جهنم وتكاد أرواحهم أن تصطلى بنارها ، فكانوا كمـا وصفهم على بن أبى طالب كرم الله وجهه وقال :

« أما الليل فصـافون أقـدامهم يرتلون لأجزاء القرآن ترتيلا ، فاذا مروا بآية فيها تشويق ، ركنوا اليها طمعا ، وتطلعت أنفسهم ، حتى ان الصحابة رضوان الله عليهم كانت ترتعد فرائصهم اليها بمسامع قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصـول آذانهم ، فهم جـاثون على ركبـهم ، يطلبـون من الله فكاك رقـابهم » .

---

(٢٥) التوبة : ٩١ — ٩٢ .

وفى اتهام أنفسهم بالتقصير فى عبادة الله والقول الطيب ... والعمل الصالح قمة التقوى وذروتها ...

ذلك لأن من يرى نفسه أهلا لصفة ما ... فقد كاد أن يضيع ما أنعم الله به عليه ... ومن ظن أنه قد ارتقى وسما .. كاد ظنه أن يهلكه ويودى بما قدمت يداه ..

كان العربى المسلم ... يتقى ربه .. سيدا ومسودا ... غنيا وفقيرا ... حاكما ومحكوما ... قويا وضعيفا ..

وكان خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصون أتباعهم بتقوى الله فى أول لقاء .

... فعل ذلك سيدنا أبو بكر رضى الله عنه وقال : « أما بعد ... فانى أوصيكم بتقوى الله عز وجل ... وأن تثنوا عليه بما هو أهله .. وأن تخلطوا الرغبة فى الرهبة وتجمعوا الالحاف فى المسألة ، فان الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾[٣٦] .

ويذكر سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولده بالتقوى فى وصية له ويقول :

« أما بعد ، فانى أوصيك بتقوى الله عز وجل ، فان من اتقاه وقاه ، ومن أقرضه جزاه ، ومن شكره زاده ، واجعل التقوى نصب عينيك ، وجلاء قلبك » .

---

(٣٦) الأنبياء : ٩٠ .

ولقى المجتمع المسلم ثواب تقواه فى دنياه احقاقا لقوله تعالى : ﴿ ... ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ (٢٧) .

ووعد الله المتقين بأحسن الجزاء فى الآخرة فى قوله تعالى :

﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴾ (٢٨) .

مجتمع الحرية والاخاء والمساواة :

كان لعقيدة العرب الفاسدة أثرها فى أخلاقهم .. وفى معاملاتهم ... فكانت غاياتهم شتى ... وآراؤهم وأفكارهم شتى ... وكانوا كآلهتهم لا يسمعون ولا يبصرون .. ولا يجتمعون على أمر ...

وناهيك بحياة قوم يأتمرون بقدح ... يخرجونه من وعاء بجوار الكعبة ... فان كان مكتوبا عليه « افعل » ... مضوا لما خرجوا له تجارة كانت ... أو زواجا ... أو سفرا .. وان كان مكتوبا عليه « لا تفعل » عادوا من حيث أتوا ... وان كان القدح « غفلا » أعادوا الاستقسام مرة أخرى حتى يستأنسوا بما أمرت به الآلهة .

ويعنى هذا أن حياتهم كانت مرهونة بأوهام وأباطيل

---

(٢٧) الطلاق : ٢ ، ٣ (٢٨) آل عمران : ١٥

ما أنزل الله بها من سلطان ... حتى هلت بشائر الرحمة بمبعث رحمة الله للعالمين ... فاستنقت العرب من فيض رحمته ...

وكان أول القطر حرية أشرق فجرها فى ربوع مكة المكرمة .... فانجابت من النفوس ظلمات الشرك ... وسراب الباطل .

وما ذلك الا لأنهم سجدوا للواحد القهار ... ونبذوا ما دونه من أوثان وأصنام .... وعبدوا العزيز الغفار ... ولم تعد جباههم لتسجد لجاه أو سلطان او مال ... وخافوا من ربهم المنتقم الجبار .... ولم تعد قوة دونه ترهب أحدا ... ولو مزقت أجسادهم ... وأزهقت أرواحهم .. فقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ... كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ..

لقد أصبح المسلمون أحرارا فيما يعتقدون ... وأحرارا فيما يقولون ... وأحرارا فيما يفعلون .. لا يلتزمون الا بما أمرهم به ربهم ... ولا يهتدون الا بهدى نبيهم ... فهم يرون فى البلاء رحمة من ربهم ما داموا يبغون رحمته ويخشون عذابه .... ولا يجزعون لما يصيبهم فى دنياهم من هم وحزن وأذى ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لهم أن الخير فى الرضا بما ارتضاه ربهم .. وقال فى حديثه الشريف :

« ما يصيب المؤمن نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن

ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياه »[٢٩] .

كان الخوف فى داخلهم فحرروا نفوسهم منه .... حتى صغرت الدنيا كلها فى أعينهم .... وتلك هى الحرية الحقة .. أن تتحرر النفوس من الجاه ... والمال .. والسلطان .. والزوجة .. والولد ... وتكون عبدا للواحد الأحد ....

وكان الاخاء فى الله وليد الحرية ... ذلك أن ما دعاهم من قبل الى العداوة والبغضاء .. من تفاخر وتكاثر بالمال والولد .. قد قضى وانقضى .... وصار همهم آناء الليل وأطراف النهار هو الاقتداء بنبى الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم الذى قال فى حديثه الشريف « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه .... من كان فى حاجة أخيه ... كان الله فى حاجته ... ومن فرج عن مسلم كربة ... فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .... ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة »[٣٠] .

وكانت صحبة الصديق رضى الله عنه فى هجرته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذروة هذا الاخاء .. فقد ألقى ما كان يملكه من متاع الدنيا وراء ظهره وآثر الهجرة ابتغاء وجه ربه .

وصفت أسماء رضى الله عنها هجرة أبيها الصديق وقالت :

« دخل علينا جدى أبو قحافة .... وقد ذهب بصره ...

---

(٢٩) رواه البخارى ومسلم . (٣٠) متفق عليه .

فقال : والله انى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ...
قلت : كلا يا أبت .. انه قد ترك لنا خيرا كثيرا ... فأخذت أحجارا فوضعتها فى كوة البيت .. كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده فقلت :

« يا أبت ... ضع يدك على هذا المال .

فوضع يده عليه فقال : لا بأس اذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن .

قالت أسماء رضى الله عنها :

« ولا والله ما ترك لنا شيئا ، ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك » .

مجتمع الاخاء فى المدينة المنورة :

وانطلق الركب الطاهر الى المدينة ، وكانت أول ثمرات رحمة الله للعالمين اخاء ، ومودة بين الأوس والخزرج ، فصاروا بمنة الله وفضله أنصارا لله ولرسوله .

وتآخى المهاجرون والأنصار ، وتقاسموا الديار ، والأموال .

وفغر التاريخ فاه دهشة وعجبا مما يراه بعد أن ولت العداوة والبغضاء والقتال الى غير رجعة ، وبعد أن آثر الأنصارى أخاه على نفسه ، وقدم له ما يملكه حتى لا يشعر بالغربة والحاجة .

فعل ذلك سعد بن الربيع الأنصارى رضى الله عنه وقال لأخيه فى الله عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه :

« أى أخى ، أنا أكثر أهل المدينة مالا ، فانظر شطر مالى فخـذه ، وتحتى امـرأتان ، فانظـر أيتهما أعجب اليك حتى أطلقهـا » .

فقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : « بارك الله فى أهلك ومالك ، دلونى على السوق ، فدلوه ، فذهب وباع ، واشترى ، وربح » .

وصورت الآيات البينات هذا الاخاء الانسانى أسمى تصوير فى قوله تعـالى :

﴿ والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبـون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هو المفلحون ﴾[٣١] .

... وكما وأن الحرية أثمرت الاخاء فى الله ، فقد قضى الاخاء على آفات النفس وأمراضـها ... فلم تعـد النفـس مستكبرة متعالية ... لأن الاخاء فى الله يعنى المساواة .

... لقـد تآخت النفوس .. فصار مولى خديجة رضى الله عنها قبـل الاسـلام زيد بن حارثة رضى الله عنـه أخا لصاحب رسول الله ورفيقه فى الغار أبى بكر الصـديق رضى الله عنـه .

... وتألق فجر المسـاواة فى سماء الانسانية يوم صار

(٣١) الحشر : ٩

سلمان الفارسى وبلال الحبشى وصهيب الرومى رضى الله عنهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

... وأشرقت شمسها وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن فى أول خطبة له ويقول : « القوى عندكم الضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ... والضعيف عندكم القوى عندى حتى آخذ الحق له » .

حقا ... لقد أبدل رحمة الله للعالمين عداوة العرب ألفة ومحبة ... وأبدل خوفهم أمنا ... وقتالهم سلاما .. فأصبح مجتمعا للحرية والاخاء والمساواة ... تزكى معانيها السامية فروض الاسلام من صلاة ... وصيام ... وحج .. وزكاة .

مجتمع الحق والعدل والامن :

صار المسلمون يحقون الحق ، ويبطلون الباطل لما بعث الله نبى الحق الذى هداهم الى الحق ، يسبحون بحمد ربهم ويمجدون ، ويؤمنون به وله يركعون ويسجدون .

وصاروا يقدسون الحق بعد ما أضاء سنا الحق ظلمات نفوسهم ، وأشرقت أنواره فى قلوبهم ، وهم يرتلون آيات الله ، تهديهم الى الحق ، والى صراط مستقيم فى قوله تعالى :

﴿ وهو الذى خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون ، قوله الحق ، وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾[٣٢] .

---

(٣٢) الآنعام : ٧٣

ثم صارت ألسنتهم تلهج بذكر الحق كما علمهم رسولهم صلى الله عليه وسلم الذى كان يثنى على ربه بما هو أهله ويقول :

« اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق .

اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، واليك أنبت ، وبك خاصمت ، واليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، الذى لا اله الا أنت ولا حول ولا قوة الا بالله »(٣٣) .

وصار الحق فى المجتمع العربى بعد اسلامه دعامة من دعائمه ، وغاية يسعى اليه .

وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم كل عضو من أعضاء المجتمع الى ما أوجبه عليه ربه له ، ولأسرته ولمجتمعه ، وبين أن هذه التكاليف يقابلها فى الوجه الآخر حقوق .

ولقد تعرضنا للأسرة وتبين لنا حق الزوج والزوجة

---

(٣٣) أخرجه الجماعة .

والأولاد والخدم والموالى ، والذى بينه حديثه الشريف ، وبين فيــه حقوق الرعية قبل الوالى وقال :

« كلكم راع ، وكلكم مســئول عن رعيته ، الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجهــا ومســئولة عن رعيتها ، وكلكم راع ومســئول عن رعيته »[٣٤] .

ولو تعرضنا لمســئولية الامام لعلمنا أنها تعنى حقــوق الرعية ، وتعنى قيامه على شــئون حياتهم ، وتعنى بأن الوالى ــ وهو المسئول عن رعيته ــ لا يغفل عن أولى الضعف والحاجة كما بين ذلك حديث رســول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

« من ولى من أمر الناس شــيئا فاحتجب عن أولى الضعف والحاجة ، احتجب الله عنه يوم القيامة »[٣٥] .

والوالى يرى معايش الناس ، وأحــوالهم ، وحاجاتهم ، وما يحاولونه من هم فى المرآة التى تلازمه آناء الليــل وأطراف النهار وللرعية الحق فى الاطمئنان الى صــدق وأمانة من حــول الوالى من أمراء ، ووزراء ، وقواد ، والذى تعرض له حديث رســول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال :

« ما بعث الله من نبى ، ولا استخلف من خليفه ، الا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه . وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليــه . والمعصوم من عصم الله »[٣٦] .

---

(٣٤) متفق عليه .
(٣٥) رواه أحمد والطبرانى .
(٣٦) متفق عليه .

والرسول صلى الله عليه وسلم وهو يبين حقوق الرعية قبل واليهم لم يغفل حق الوالى حيث قال فى احدى خطبه « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وان كان عبدا حبشيا فانه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة »[٣٧] .

انه المجتمع العربى المسلم الذى أقامه نبى الرحمة على دعائم الحق ... فكان خير مجتمع رأته الانسانية .

ولقد امتثل الصحابة رضوان الله عليهم لهذا الهدى النبوى وأقاموا حياتهم على الحق أفرادا وجماعات ، واستظل بهذه المظلة الواقية كل ذى حق فى الحياة انسانا كان أو حيوانا أو طائرا يطير بجناحيه فى السماء ، واحتموا بظلال الحق الوارفة من قيظ التعصب والبغض والكراهية التى دمرت حياتهم ومزقتهم أحزابا وشيعا .

ولعلنا لو تدبرنا الحديث الشريف الذى يحفظ للطير حقه ويأبى أن نلهو به ونعبث ، ونجحد نعمة الله علينا وقد سخره لنا طعاما طيبا ، لعلمنا أن لكل ذى كبد رطبة حق .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من انسان يقتل عصفورا فما فوقها بغير حقها الا يسأله الله عنها يوم

---

(٣٧) أخرجه أحمد ، وأبو داود وغيره .

القيامة .. قيل : يا رسول الله .. وما حقها ؟ قال : حقها أن تذبحها فتأكلها ، ولا تقطع رأسها فترمى به »[٣٨] .

ان الحق يعلو ويسمو ويسع حتى الجماد الذى لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يشكو من انسان أنكر له حقا . فقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن للطريق حقه ان جلسنا فيه نتحدث فى أمور دنيانا ، وحق الطريق أن نأمر فيه بالمعروف ، وننهى فيه عن المنكر ، ولا نجرح مشاعر الناس بكلمة نابية أو نظرة جارحة ، ولا نبدل نعمة الله اثما وبغيا وعدوانا ، ونجحد آلاء الله الذى سخر لنا الأرض نمشى فى مناكبها ونأكل من رزقه .

اهتدى السلف الصالح بهدى الرسول صلى الله عليه وسلم فأعطوا الطريق حقه الذى بينه فى حديثه الشريف وقال للصحابة رضوان الله عليهم « اياكم والجلوس فى الطرقات . قالوا : يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد ، نتحدث فيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاذا أبيتم الا المجلس فأعطوا الطريق حقه .. قالوا وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : غض البصر ... وكف الأذى ... ورد السلام ... بالمعروف ... والنهى عن المنكر »[٣٩] .

ولقد رأى الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحق الحق ويبطل الباطل ، ورأوه وهو يحفظ

---

(٣٨) رواه النسائى والحاكم . (٣٩) متفق عليه .

لصاحب البيت حقه فيمن دخل بيته ... ويعلم الزائر أن يحفظ حق صاحب الدار ...

عن ربعى بن خراش قال : حدثنا رجل من بنى عامر استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت فقال : أألج ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخادمه « اخرج الى هذا فعلمه الاستئذان .... فقل له : قل : السلام عليكم أأدخل ؟ فسمعه الرجل ، فقال : السلام عليكم ... أأدخل ؟ فأذن له النبى صلى الله عليه وسلم فدخل »[٤٠] .

ورأوه وهو يخشى أن تطالبه وصيفة بحقها ان ضربها حتى ولو بسواك فى يده ...

عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى وكان بيده سواك ... فدعا وصيفة له ــ أو لها ــ حتى استبان الغضب فى وجهه ... وخرجت أم سلمة الى الحجرات فوجدت الوصيفة وهى تلعب ببهمة فقالت : ألا أراك تلعبين بهذه البهمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك ، فقالت : لا والذى بعثك بالحق ما سمعتك ... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لولا خشية القود لأوجعتك بهذا السواك »[٤١] .

وقد نذر المسلمون ما يملكون من نفس ومال للحق الذى يعملون له ... ويتعاملون به بعد أن حدثهم رسول الله صلى الله عليه

---

(٤٠) رواه أبو داوود باسناد صحيح .

(٤١) رواه أحمد والطبرانى .

وسلم بمنزلة المقسطين عند ربهم فقال : « ان المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ... وكلتا يديه يمين : الذين يعدلوان في حكمهم وأهليهم وما ولوا »(٤٢) .

ثم ضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من نفسه المثل ... فرأوه يحق الحق ... وهو يقضى لرجل يغلظ له القول ... ولا تزيده سفاهة الرجل الا حلما ... وسماحة .. وعدلا ...

... عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم يتقاضاه فأغلظ له ... فهم به أصحابه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« دعوه فان لصاحب الحق مقالا ... ثم قال : أعطوه سنا مثل سنه (أى جملا مثل جمله) .. قالوا : يا رسول الله لا نجد الا أمثل من سنه ... قال : أعطوه ، فان خيركم أحسنكم قضاء »(٤٣) .

وراوه صلى الله عليه وسلم ... لا يحابى .. ولا يجامل المسىء لجاهه وحسبه ونسبه ومكانته في قومه ...

... عن عائشة رضى الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ... فقالوا : من يجترىء عليه الا أسامة

---

(٤٢) رواه مسلم والنسائى . (٤٣) متفق عليه .

ابن زيد حب رسـول الله صلى الله عليه وسلم ... فكلمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أتشفع فى حد من حـدود الله تعالى ؟! ثم قام فاختطب ثم قال :

« انما أهلك من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ... واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحـد ... وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »(٤٤) .

وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم جزاء الظـالم فى حديثه الشريف وقال :

« من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقـد أوجب الله لـه النار ، وحرم عليه الجنة . فقال رجل : وان كان شيئا يسـيرا يا رسول الله . قال : وان كان قضيبا من أراك »(٤٥) .

وحدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن جزاء الظالم لا يقتصر على ما يلقاه من عقاب يوم لقاء ربه ، وأن الله يجازى الظالم بظلمه فى دنياه وقال :

« لا تظلموا ، فتدعوا فلا يستجاب لكم ، وتستسقوا فلا تسقوا ، وتستنصروا فلا تنصروا »(٤٦) .

وحث رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة المسـلمين على مقاومة الظالم ، وبين فى حديثه الشريف أن مقاومة الظالم مسئولية يقوم بها كل من رأى ظلما يقع بأخيه وقال :

---

(٤٤) متفق عليه .

(٤٥) رواه مسلم .

(٤٦) رواه الطبرانى .

« لا يقفن أحدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما ، فان اللعنة تنزل على كل من حضره حين لم يدافعوا عنه . ولا يقفن أحدكم موقفا يضرب فيه رجل ظلما فان اللعنة تنزل على كل من حضره حين لم يدافعوا عنه »[٤٧] .

وأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم أتباعه بأن لا يضيعوا مكانتهم السامية ، ومنزلتهم الكريمة عند ربهم ، وقد كرمهم ورفع من شأنهم ، وبأن لا يحتقروا أنفسهم خوفا من البغى والعدوان وقال :

« لا يحقرن أحدكم نفسه . قالوا : يا رسول الله . وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟! قال : يرى أن عليه مقالا ثم لا يقول فيه . فيقول الله عز وجل يوم القيامة : ما منعك أن تقول فى كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس . فيقول : فاياى أحق أن تخشى »[٤٨] .

ذلك أن الناس قد تخشى أولى القوة ، وتشرى أمنها ، فلا تنصر مظلوما حتى يكاد المستضعفون فى الأرض يظنون أن شمس العدل قد غابت ، وأن الأرض ومن عليها قد دانت لفئة باغية ، لا ترعى الله لا فى دينها ولا فى دنياها .

لكن صوت الحق لابد وأن يعلو على الباطل ما دام على الأرض طائفة من الأمة قائمة على الحق كما حدثنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

---

(٤٧) واه الطبرانى والبيهقى .
(٤٨) رواه ابن ماجة .

« لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين الى يوم القيامة فينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم : تعال صل بنا . فيقول : لا ، ان بعضكم لبعض أمراء ، تكرمة الله تعالى لهذه الأمة »(٤٩) .

هذه الطائفة المجاهدة لا تخشى فى الله لومة لائم ، ولا يخرس ألسنتهم عن الحق دينار ولا درهم ، ولا يبغون بما يقولون أو يفعلون علوا فى الأرض ولا فسادا .

هؤلاء الذين زكاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتبر جهادهم فى سبيل الله أفضل الجهاد فى حديث شريف رواه أبو عبد الله طارق بن شهاب البجلى الأحمس رضى الله عنه قال : ان رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم وقد وضع رجله فى الغرز . أى الجهاد أفضل ؟ قال : كلمة حق عند سلطان جائر »(٥٠) .

لقد أمن الاسلام العبد المسلم فى نفسه ودينه وماله وعرضه ، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام المسلم عند ربه ومكانته ومنزلته وقال :

« لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم »(٥١) .

وأغلق رسول الله صلى الله عليه وسلم أبواب الشيطان حتى لا يجد سبيلا الى الفتنة وقال :

---

(٤٩) أخرجه أحمد ومسلم . (٥٠) رواه النسائى .

(٥١) رواه مسلم والنسائى والترمذى .

« لا يشير أحدكم الى أخيه بالسلاح ، فانه لا يدرى لعل الشيطان ينزع فى يده فيقع فى حفرة من النار »(*) .

حدود الله :

أما من تسول له نفسه الأمارة بالسوء خلاف ما دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فان له جزاءه ... وله عقابه الذى يتمثل فى حدود الله ... والتى تعاونت أمة الاسلام على اقامتها ... حتى لا تسود الأمة أنصار الباطل ... وجنود الشيطان ... فيهلك الحرث والنسل ... وينهار صرح القيم الاسلامية ... وتعود الأمة الى حياة الأنعام أو أضل ...

لذا .. دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اقامة الحدود ، وضرب لنا مثلا لأمة تقيم حدود الله ، وأخرى غافلة وقال :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ... وكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ... فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ... فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ... وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا »(٥٢) .

وبفضل الله وبرحمته أمن المجتمع ... وتحقق فيه قول

(*) رواه البخارى ومسلم .

(٥٢) رواه البخارى والترمذى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم حيث يقول : يا عدى هل أتيت الحيرة ؟ ... قال عدى : لم آتها وعلمت مكانها ... فقال : يوشك أن تخرج الظعينة بغير جوار حتى تطوف بالبيت » .

ان أمة الاسلام قد نعمت بالأمن ردحا طويلا من الزمن ، فالحق كان سبيلهم الى العدل ... والعدل كان من ثماره الأمن ... هذا الأمن الذى قال عنه الامام أحمد بن حنبل فى مسنده : من أراد أن يعرف غاية الأمن والسكينة عليه أن يعرف حكم اللقطة فى الاسلام ... فانه يدعها مكانها حتى يرجع اليها صاحبها أو يلتقطها فيعرفها سنة ثم تعد دينا فى ذمته ... أما فى الحرمين فهو يعرفها أبدا[٥٣] .

مجتمع العلم والتعلم :

وأصبح المجتمع العربى بعد اسلامه مجتمعا للعلم والتعلم فى شئون الدين والدنيا ، ونالوا بعد اسلامهم حظهم من العلم ، ثم صاروا يلقنونه للأمم التى كانت لا تعلم شيئا لا من أمور دينها ولا من أمور دنياها .

وكان من فضل الله على العرب ، وعلى الأمة الاسلامية وسيظل هذا الفضل نورا يشرق فى عقول وقلوب المؤمنين بالله ربا ، وبرحمة الله للعالمين نبيا ورسولا ، وبالقرآن هاديا ومبشرا ونذيرا ــ كان من فضل الله أن آيات القرآن الكريم نزلت تحت

---

(٥٣) مسند الامام أحمد .

أتباعه على القراءة فى أول آية لأول سورة نزلت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الانسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقلم • علم الانسان ما لم يعلم ﴾ (٥٤) •

ولقد اهتدت أمة العرب بعد اسلامهم بهدى الكتاب الكريم، وسنة الرسول الرءوف الرحيم ، فقرأت ، وتعلمت ، وعلمت من حولها من الأمم •

ولأن القراءة نبع رقراق تستقى العقول منه ، فتثرى بالعلوم والمعارف ، ولأن القراءة مورد عذب ترده النفوس الضالة فتهتدى ، والقلوب المضطربة فتطمئن ، والأرواح الشاردة فتألف وتأتلف • لذلك رفرفت راية العرب لما اهتدوا بكتاب ربهم فقرأوا وتعلموا •

وكان أول كتاب قرأته العرب ــ بعد اسلامهم ــ هو كتاب القدرة ، والرحمة ، واللطف ، والابداع • ورأت ــ وهى تقرأ هذا الكتاب الثرى بمعانى الايمان ــ رأت العرب ربها فى نفسها بعد أن تدبرت ، وتأملت ، وفكرت ، كيف خلقها على غير مثال سبق ، ثم جعل منها زوجها ليسكن اليها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء •

قرأت العرب ــ بعد اسلامهم ــ كتاب القدرة

---

(٥٤) العلق : ١ ــ ٥

والابداع ، فاهتدت بفضل ربها الى عظمته ، وقدرته ، فآمنت به خالقا وبارئا ، ومصورا ، وآمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم داعيا الى الله وسراجا منيرا ، وبالكتاب الذى أنزله معه مبشرا ونذيرا .

حقا انه كتاب أزلى أبدى ، يعلن فى كل آونة وحين قدرة الله وابداعه ، وحكمته ، ولطفه بخلقه .

انه كتاب القدرة يتلو على الدهر منذ الأبد حتى الأزل : ان الله هو الخالق البارىء المصور ، وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد .

وساعتها سجدت القلوب تناجى ربها الذى خلقها من العدم ، وتتلو آياته التى تقرر عظمته وابداعه فى قوله تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾(٥٥) .

وقد دعانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى التفقه فى شئون الدين ، وأوصى أبا ذر الغفارى رضى الله عنه الى تحصيل العلم ، وقال :

« يا أبا ذر ، لأن تغدو فتتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة ، ولأن تغدو فتتعلم بابا من العلم عمل به أو لم يعمل به ، خير لك من أن تصلى ألف ركعة »(٥٦) .

---

(٥٥) المؤمنون : ١٢ ـ ١٤ (٥٦) رواه ابن ماجة .

وامتثل الصحابة رضـــوان الله عليهم لوصاياه صلى الله عليه وسلم ، فنفرت تتفقه فى شـــئون دينها ، وتنهل من مناهل العلم أينما كان ، فاذا بهم يقطعون الوديان ، ويجتازون الصحراء ليتثبتوا من حديث شريف سمعوه •

فعل ذلك أبو أيوب الأنصارى الذى قصد مصر راكبـا دابته ليتثبت من حديث شريف سمعه •

وفى مصر توجه الى دار عقبة رضى الله عنه بالفسطاط حتى اذا تحقق من الحديث الشريف عاد من حيث أتى الى المدينـة المنـورة •

ذلك أن الصحابة رضـــوان الله عليهم وهم ينهلون من مناهـــل العـــلم ، ويردون نبعه الرقـــراق ، ويتحملون فى ذلك المشـــقة ، انما كانوا يفعلون ذلك ابتغاء مرضاة الله ، وطمعا فى جناته التى وعدهم بها ربهم ، وبشرهم بها نبيهم صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف وقال :

« من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا الى الجنـة »[٥٧] •

وازداد اقبالهم على العلم لمـا تنزلت الرحمات على العالم فى دنياه وأخراه ، ولمـا اطمأنت قلوبهم الى الهدى النبـوى يزف اليهم ثواب الله الذى لا ينقطع عن العالم الذى ترك فى الناس علما نافعا ، فينهل من موزده المقبلون على ربهم ، ويحدثهم بأن فضل الله يتنزل عليه وهو بجوار ربه •

---

(٥٧) رواه مسلم وأبو داود وغيره •

بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وبشر به الصحابة رضوان الله عليهم وقال :

« اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث ... صدقة جارية ... أو علم ينتفع به ... أو ولد صالح يدعو له »(٥٨) .

وقد يظن بعض الناس أن العلم الذى دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتصر على العلم بشئون الدين ... لكن هدى النبى صلى الله عليه وسلم ووصاياه للصحابة رضوان الله عليهم ، وللمسلمين ، تبين أن المقصود هو مطلق العلم .

فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت رضى الله عنه الى تعلم السريانية وقال :

« انى اكتب الى قوم فأخاف أن يزيدوا على أو ينقصوا فتعلم السريانية » .... قال زيد رضى الله عنه :

« فتعلمتها فى سبعة عشر يوما »(٥٩) .

وحسبنا أن آيات الله الكريمة بينت لنا أن العلم بشئون ديننا لا يقف حائلا عن العلم بشئون دنيانا ...

ولا أدل على ذلك من أن يوسف عليه السلام ، وقد بعثه الله نبيا ، يدعو أتباعه الى عبادة ربه كان على علم بشئون المال حتى جعله العزيز ملك مصر أمينا على خزائنه ...

قال تعالى : « ... وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على

---

(٥٨) اخرجه أحمد ومسلم والثلاثة .

(٥٩) رواه البخارى بألفاظ أخرى .

خزائن الأرض انى حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾[٦٠] .

كما بينت آيات الله منافع الحديد فى قوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوى عزيز ﴾[٦١] .

ولو أننا تدبرنا أمر الحضارة الغربية بمنشئاتها ، ومصانعها ، وطائراتها ، وأقمارها الصناعية ، وسفن الفضاء ، وأسلحتها التى سيطرت بها على شعوب دونها علما لرأينا أن هذا الصرح الشاهق قام على عناصر منها الحديد الذى أشارت آيات الكريم الى استخداماته فى قوله تعالى :

﴿ قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ، قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ، ءاتونى زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال ءاتونى أفرغ عليه قطرا ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ﴾[٦٢] .

وامتثل المسلمون لاشارات القرآن الكريم ... واهتدوا بهدى الرسول صلى الله عليه وسلم ... فدرسوا ...

---

(٦٠) يوسف : ٥٤ ــ ٥٦ (٦١) الحديد : ٢٥
(٦٢) الكهف : ٩٤ ــ ٩٧

وتعلموا •• وعلموا ••• وكان من علمائهم فى الطب والفلك والرياضيات والكيمياء والطبيعة من شـاد بذكرهم وباسهامهم العلمى المنصفون من علماء الغرب •

يقول المستشرق جورج سارطون :
« ••••• لقد بلغ المسلمون ما يجوز تسميته معجزة العلم العربى ••• ولقد أوردت كلمة « معجزة » لترمز الى ما بلغ اليه المسلمون والعرب من الثقافة والعلم مما يخرج تقريبا عن نطاق التصديق » •

وحقا ما قاله المستشرق جورج سارطون •• فقد أورثوا الغرب علوما أقاموا بها حضارتهم ••• ولولا علماء المسلمين ما قامت هـذه الحضـارة ، فقد ظلت جامعة مونبليه تستشهد بآراء ابن سـينا الى أواخر القرن المـاضى •

كما وأن أبا بكر الرازى يعـد أول واضـع لعلم الطب التجريبى ، وكان يجرى تجاربه على الحيـوانات ليختبر تأثير الأدوية فيها ، ثم يسجل جميع ملاحظاته عليها •
كما وأنه يعتبر أول من وضـع طريقة العلاج بالمشاهدة •

وهو أول من عرف الحصبة والجدرى ، وأول من فكر فى العلاج النفسى •••

واعترف الغرب باسهامه العلمى ، وخصصت له جامعـة « بريستون » الأمريكية أكبر جنـاح فى أجمل بناء لعرض مآثر الطبيب المسلم أبى بكر الرازى ••

كما وأن المسلمين هم أول واضعى علم الطبيعة بعد أن عرفوا كثيرا من النباتات الطبية ...

ويعد أبو القاسم – طبيب القصر الملكى فى قرطبة – من الأطباء النابغين ، وقد ألف كتبا فى الجراحة والتوليد .

وتولى المسلمون حماية التراث الحضارى للأمم السابقة ، ونقلوا للغرب فلسفات اليونان ، ودراساتهم ، وأبحاثهم ، واسهامهم الحضارى . ولولا المسلمون لما عرفت أوربا المعاصرة شيئا عن تراث اليونان والفرس والرومان ، ولما قامت حضارتها التى كان للمسلمين دور كبير فى قيامها كما يقر بذلك جوستاف لوبون ويقول :

« ان القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة الا بواسطة العرب ، وان العرب هم الذين مدينوا أوربا ، ولا تزال عناصر مدنية العرب ، وهى الدين ، واللسان ، والفنون حية ، فالعرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر ، مع استقامة الدين » .

ولعلنا لا نحتاج الى دليل على أن الحضارة الاسلامية التى قامت عليها وعلى ما نقلتها حضارة الغرب المعاصرة لم تكن لتزدهر لولا مبادىء الاسلام السامية ، وتكريمه للعلم والعلماء .

كما وأن الاسلام وهو دين الله الذى فطر الناس عليه راعى فى اسهامه الحضارى الجانب المادى والجانب الروحى ، فقامت الحضارة الاسلامية انسانية فى غايتها ، مثالية فى

أخلاقها ومعاملاتها ، واضعة نصب عينيها سعادة الانسان روحا ، ونفسا ، وجسما ، محققة له آماله دنيا وأخرى .

وقد شهد بهذا كثير من علماء الغرب منهم المستشرق فوريسون الذى قال :

« ان الحق الذى لا يمارى فيه أحد أن الاسلام أكثر من معتقد ودين ، وهو نظام اجتماعى تام الجهاز ، وحضارة كاملة النسيج ، لها فلسفتها ، وتهذيبها ، وفنونها » .

ولم يكن لهذا النظام الاجتماعى والحضارة الكاملة النسيج لتتحقق الا برحمة من الله وفضل ...

ولم يكن لهذا الشتات من القلوب أن تأتلف الا بهدى من نبى الرحمة الذى ظل يقوم المعوج ويهدى الضال حتى آخر لحظة من لحظات حياته ...

ولا أدل على هذه المنة الربانية من خروجه الى الأنصار لما سمع بخشيتهم من موته فى مرضه الذى لحق فيه بالرفيق الأعلى .

... لقد خرج صلى الله عليه وسلم متوكئا على على بن أبى طالب والفضل والعباس أمامه يخط برجليه ، وهو معصوب الرأس وجلس أسفل مرقاة فى المنبر ، فثار الناس اليه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ... هل خلد نبى قبلى فيمن بعث اليه فأخلد فيكم ... ألا وانى

لاحق بربى ، فأوصيكم بالمهاجرين خيرا ••• وأوصى المهاجرين فيما بينهم بخير » •

••• ومضى نبى الرحمة وهـو يعانى من مرضـه يوصى المهاجرين بالأنصار ويقول : « وأوصيكم بالأنصـار خيرا •• فانهم الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلكم » ••

••• وظل يعدد مآثرهم ويقول : « ألم يشـاطروكم فى الثمـار ألم يوسـعوا عليكم فى الديار ••• ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم خصاصـة » •

وأوصى المسـلمين وصية ان اقتدوا بها سعدوا فى دنياهم ونعموا بما يجريه ربهم من خير على أيدى أئمتهم وقال :

« يا أيها النـاس ان الذنوب تغير النعم ، فاذا بر النـاس برتهم أئمتهم ••• واذا فجر الناس عتى أئمتهم » •

رحمـة الله للعالمين :

كان رسـول الله صلى الله عليه وسلم رحمـة للعالمين انسـهم وجنهم •• زرعهم وضرعهم ••• دوابهم وهـوامهم وطيرهم •

ولقد تناولنـا رحمته صلى الله عليـه وسلم بالانسـان ••• ورأينا كيف تجلت هـذه الرحمة لمـا دعا النـاس أجمعين فى مشـارق الأرض ومغاربها الى خير دين ، ولم يفرق فى دعوته بين جنس وجنس •• ولون ولون •

وأرسـل رسله الى مشـارق الجزيرة العربيـة ومغاربها

يدعون الناس الى عبادة الله الواحد القهار ...

ودعا الأكاسرة والقياصرة ، ودعا المستضعفين فى الأرض ، والأمراء والملوك ، ودعا العرب والعجم .

أرسل صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة الى قيصر ملك الروم ، وأرسل عمرو بن أمية الضمرى الى النجاشى ملك الحبشة ، وأرسل حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس ملك الاسكندرية ، وأرسل عمرو بن العاص السهمى الى جيفر وعياد ملكى عمان ، وأرسل سليط بن عمر الى ثمامة وهوذة ملكى اليمامة ، وأرسل العلاء بن الحضرمى الى ملك البحرين ، وأرسل شجاع بن وهب الى ملك تخوم الشام ، وأرسل أبى أمية المخزومى الى ملك اليمن .

لقد تغمدت رحمته التى بعثه الله بها الناس عامة ، فحذرهم من العذاب ان أشركوا بربهم وخالفوه فيما أمرهم به ، وصور لهم نار جهنم وكأن شهيقها وزفيرها يطن فى آذانهم وقال : « ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم قالوا : والله ان كانت لكافية يا رسول الله ... قال : فانها فضلت بتسعة وستين جزء كلهن مثل حرها »[٦٣] .

وبين للناس طعامها وشرابها حتى يتقوها بصالح العمل وقال : « لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا ، فكيف بمن يكون طعامه »[٦٤] .

---

(٦٣) أخرجه مالك والشيخان والترمذى .

(٦٤) أخرجه أحمد والنسائى وابن ماجة والحاكم والترمذى .

وحتى لا تأتى الناس الساعة بغتة وهم فى لهوهم وغيهم وضلالهم ، وحتى لا يندموا على ما فاتهم يوم لا ينفع الندم ، حدثهم بأماراتها حتى يكونوا على بينة منها وقال :

« لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان ، فتكون السنة كالشهر ، والشهر كالجمعة ، والجمعة كاليوم ، واليوم كالساعة ، والساعة كالضرمة من النار »(٦٥) .

وكانت عيناه تذرفان رحمة بأتباعه ، اذا تليت آية تبين شهادته لأن الشاهد لا يخفى النقائص ، وما ذلك الا رحمة بأمته من يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون .

... عن أبى مسعود رضى الله عنه قال ... قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : « اقرأ على القرآن » ... فقلت : يا رسول الله ... أقرأ عليك ... وعليك أنزل ؟! قال : « انى أحب أن أسمعه من غيرى » ... فقرأت عليه سورة النساء ، حتى جئت الى هذه الآية : ﴿ فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ .. فالتفت اليه فاذا عيناه تذرفان(٦٦) ...

وكان من رحمته بالناس أن وصف لهم الجنة وقصورها... وحورها ... وأنهارها حتى يعمل لها العاملون .... وحتى يقوموا الليل .. ويصوموا النهار ... ويبذلوا جهدهم ليفوزوا بها .. وينعموا بثمارها ... وظلالها .. وولدانها .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ... الجنة : ما بناؤها ؟ قال : لبنة من فضة ، ولبنة من

---

(٦٥) أخرجه أحمد والترمذى .   (٦٦) متفق عليه .

ذهب ، ملاطها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران . من يدخلها ينعم ولا يبؤس ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابهم ، ولا يفنى شبابهم .. » الحديث(٦٧) .

ثم بين لهم أن الايمان بالله والعمل الصالح يعنى السيادة فى الأرض ، والأمن فى النفس والمال والدين ...

وأوصاهم بالالتزام بما أمرهم به ربهم ليتحقق فيهم وعده الذى وعدهم به فى قوله تعالى :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾(٦٨) .

ثم كان من رحمته التى تغشت أمته منذ بعثه حتى قيام الساعة أن بين لهم مكانتهم ومنزلتهم عند عدوهم ان جاهدوا لاعلاء كلمة الله ، ونصر دينه ، وهوان أمرهم ان ركنوا الى الحياة الدنيا وآثروها على الآخرة وهان عليهم دينهم .

وبين كل آونة وحين ترى أمة الاسلام حديثه ماثلا أمامهم ان أغمضوا أعينهم ولو للحظات عن الجهاد ، ورأوا الذلة والهوان ينزل عليهم تصديقا لما حدثهم به وقال :

« يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة

---

(٦٧) أخرجه أحمد والدارمى والبزار وابن حبان والترمذى.

(٦٨) النور : ٥٥

الى قصعتها . قالوا : أومن قلة نحن يا رسول الله ؟ قال : لا .. والذى نفسى بيده انكم يومئذ لكثير ولكنكم كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم وليجعلن فى قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهة الموت »(٦٩) .

رحمة الله للعالمين والشفاعة :

ووسعت رحمته صلى الله عليه وسلم المذنبين من أتباعه ، وادخر دعوته شفاعة لأمته يوم الفزع الأكبر الذى وصف هوله رب العزة والجلال فى كتابه الكريم .

قال تعالى : ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ﴾(٧٠) .

فى هذا اليوم العصيب يشفع نبى الرحمة لأمته ، كما حدثنا بذلك وقال : « لكل نبى دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبى دعوته ، وانى أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة ، فهى نائلة ان شاء الله تعالى من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئا »(٧١) .

رحمة الله للعالمين والجن :

ولقد نالت الجن حظا من رحمته لما استمعوا اليه صلى الله عليه وسلم يتلو آيات ربه ، وذهبوا الى قومهم يدعونهم الى كتاب ربهم وهدى نبيهم ، فآمن به من آمن ، وكفر من كفر .

---

(٦٩) أخرجه أبو داود .
(٧٠) الحج : ٢
(٧١) أخرجه الشيخان .

قال تعالى : « واذ صرفنا اليـك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين • قالوا يا قومنا انا سـمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لمـا بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مسـتقيم ، يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنـوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين »[72] •

رحمـة الله للعـالمين وعالم الحيـوان :

ولم يكن الحيوان بأقل حظا فى رحمته من الانس والجن ، فقد رحم الحيوان وأوصى بالرفق به فى الحضر والسفر وقال : « اذا سـافرتم فى الخصب فأعطوا الابل حظها من الأرض ، واذا سـافرتم فى الجدب ، فأسرعوا عليها السـير وبادروا بها نقيها ، واذا عرستم[73] فاجتنبـوا الطريق فانها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل »[74] •

ولعلنا لو تدبرنا أمر الجمل الذى شكى صاحبه الى النبى صلى الله عليه وسلم لعلمنا مدى رحمته التى أنعم الله بها على العالمين ، فنال كل من فى الوجود حظه منها حتى ولو كان حيوانا لا يعقل ، ولا ينطق ، الا أنه بدافع غريزته التى يعرف بها المـاء والطعام فيشرب ويأكل : أحس بهذه الرحمة •

عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال : أردفنى رسول

---

(٧٢) الأحقاف : ٢٩ ــ ٣٢

(٧٣) نزلتم بالليـل •

(٧٤) رواه مسلم .

الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأسر الى حديثا لا أحدث به أحدا من الناس ، وكان أحب ما استتربه النبى صلى الله عليه وسلم لحاجته هدفا[٧٥] أو حايش[٧٦] نخل فدخل حائطا من الأنصار ، فاذا فيه جمل ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح ذفريه[٧٧] فسكت ، فقال : من رب هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل ؟ فجاء فتى من الأنصار فقال : لى يا رسول الله . فقال : أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك اياها فانه شكا الى أنك تجيعه وتدئبه »[٧٨] .

وكانت العرب تقطع أسنمة الأبل وهى حية ، وكانت تعدها أحسن طعامها ، فنهاهم عنها وقال فى حديثه الشريف :

« ما قطع من البهيمة وهى حية فهو ميتة »[٧٩] .

ومن رحمته وصاياه لأصحابه رضوان الله عليهم بأن يحسنوا الذبحة ، ويحدوا الشفرة دون أن تراها البهيمة .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا أضجع شاة ، وهو يحد شفرته ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أتريد أن تميتها موتتين . هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها »[٨٠] .

وكما نرى اليوم « مصارعة الثيران » رياضة محببة

---

(٧٥) بناء مرتفع .
(٧٦) النخيل المجتمعة المتقاربة .
(٧٧) العظم الذى خلف الأذن .
(٧٨) ترهقه . (٧٩) رواه أحمد وأبو داود .
(٨٠) رواه الطبرانى والحاكم .

لنفوس أقفرت من الرحمة ، وقلوب أجدبت من الرفق ، فهللت ، وصفقت لمصارع يردى حيوانا أمام أعينهم قتيلا . ورأت بعين القسوة دماء تنزف فى ميدان المصارعة نصرا مبينا .

كذلك كانت العرب قبل بعث نبيها صلى الله عليه وسلم تفعل بالحيوان والطير حتى نهاها عن هذه القسوة التى دلت على قلوب سكنها الشيطان لما غفلت عن ذكر الرحمن

لقد نهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه العادة كما حدثنا ابن عباس رضى الله عنه وقال :

« نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التحريش بين البهائم »(٨١) .

ثم بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن القسوة فى معاملة الحيوان ، واهماله شأنه فى طعامه وشرابه ، يورد صاحبه موارد الهلاك ، وقال :

« عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار ، لا هى أطعمتها وسقتها اذ حبستها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض »(٨٢) .

كما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن العبد المسلم ان أحسن لحيوان فأطعمه أو سقاه أنعم الله عليه برضاه يوم يلقاه ... وقال :

« بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب

---

(٨١) رواه أبو داود والترمذى .

(٨٢) متفق عليه .

منها ثم خرج فاذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ... فقال :

« لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له .. قالوا : يا رسول الله .. وان لنا فى البهائم أجرا ؟ .. فقال : فى كل ذات كبد رطبة أجر »(٨٣) .

وقد كان للطير حظه من رحمته صلى الله عليه وسلم ، لذا أوصى الصحابة رضوان الله عليهم بالرفق ... وأبى على العبد المسلم أن يعبث بالطير حتى يهلكه وقال : « من قتل عصفورا عبثا عج الى الله يوم القيامة يقول :يا رب ان فلانا قتلنى عبثا ولم يقتلنى منفعة »(٨٤) .

وقد اتبع الصحابة رضوان الله عليهم سنته واهتدت بهديه ، وانتهت عن العبث بالطير وكانت تنهى صغارها عن العبث بالطير كما فعل ابن عمر رضى الله عنهما عندما مر بفتيان من قريش وقد نصبوا طيرا وهم يرمونه وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم فلما رأوا ابن عمر تفرقوا فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟ لعن الله من فعل هذا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا (٨٥) .

ولعل ما يجسم رحمته أمامنا حتى نكاد نلمسها بأيدينا هو

---

(٨٣) أخرجه البخارى .

(٨٤) رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه .

(٨٥) متفق عليه .

ما حدثنا به ابن مسعود رضى الله عنه قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فانطلق لحاجته فرأينا حمرة[٨٦] معها فرخان ، فأخذنا فرخيها ، فجاءت الحمرة ، فجعلت تعرش[٨٧] فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال : من فجع هذه بولديها ؟! ردوا ولديها اليها » .

ورأى قرية نمل حرقناها فقال : من حرق هذه ؟ قلنا : نحن . قال : لا يحرق بالنار الا رب النار »[٨٨] .

حقا يا رسول الله « لا يحرق بالنار الا رب النار » وما كان للصحابة رضوان الله عليهم الا أن يهيموا فى أنوار رحمتك فيرحموا كما هديتهم كل ذى كبد رطبة .

وصدق الله الرحمن الرحيم الذى قال فى كتابه الكريم « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

لقد رحمت يا نبى الرحمة الكون كله انسه وجنه ، زرعه وضرعه وطيره .

ورحمت برحمة من الله من صاحبك ومن عاداك ، ومن اتبعك واهتدى بهداك .

وكما رحمت يا رسول الله من اقتدى بقدوتك ، واستن بسنتك فى دنياك ، ادخرت لهم الشفاعة يوم يلقونك فى أخراك .. فأنت يا رسول الله فى ظهر الغيب رحمة وفى الدنيا رحمة وفى الآخرة رحمة .

---

(٨٦) طائر أحمر اللون .
(٨٧) كأنها تبنى عشا .
(٨٨) رواه أبو داود .

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٠/٢٧٨٧
الترقيم الدولى ٧ ـ ٠٥٤ ـ ٤٧٢ ـ ٩٧٧

الطبعة الأولى ١٩٩٠م — ١٤١٠ هـ

الثمن ٢٠٠